الموسوعة الصغيرة

٣١

الرواية العربية والحضارة الاوربية

شجاع مسلم العاني

الرواية العربية والحضارة الاوربية

شجاع مسلم العاني

منشورات وزارة الثقافة والفنون

الجمهورية العراقية ١٩٧٩

كلمة لابد منها

لكي لا نقـــع في شرك المفهـــوم البرجوازي للحضـارة، نرى لزاما علينا، ان نحدد ما نعنيه بهذه الكلمة ، قبل ان نتناول بالدراسة ، موقف الرواية العربية من الحضارة الاوربية ولعلنا واجـدون في كلمة (العمران) عند عالم الاجتماع العربي ابـن خلدون ، وما تعنيه هذه الكلمة لديه ، ما يغنينـا عن الخوض في مناقشات طويلة وعريضة لتحديد مفهوم واضح لكلمة الحضـارة .

يقول ابن خلدون « ... حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتانس والعصبيات واصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشا عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران ، بطبيعته من الاحوال »(١) .

---

١ ـ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ص٣٥ .

وواضح ان عالم الاجتماع العربي ، لا يرى في الحضارة او العمران الجانب الفكري والروحي لمجتمع ما فحسب ، بل يقترن ذلك عنده بالجانب المادي وطرق واساليب العيش ، وبكلمة : فان العمران لديه هو مجموع النتاجات الاجتماعية المادية والفكرية ، مرتبطة بالضرورة بشكل الدولة والشكل الطبقي التاريخي الذي تنشأ عنه .

وعلى هذا الاساس يمكن القول ، ان ثمة حضارة اقطاعية ، واخرى راسمالية ، وثالثة اشتراكية .

لقد نشأت البدايات الاولى للرواية العربية ، مع بدء التغلغل الاستعماري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ وما نتج عن ذلك من نشوء علاقات انتاج راسمالية ، لم تكن ولادتها قد تمت بطريق التطور الطبيعي لعلاقات الانتاج السابقة عليها ، بقدر ما كانت مفروضة بفعل التدخل المباشر من القوى الاجنبية الخارجية الاستعمارية ولذلك فان الرواية العربية الناشئة مع نشوء الراسمالية المصرية ، قد اقتصرت على الجانب الراسمالي من الحضارة الاوربية ، في مناقشتها لموضوع اللقاء بين الحضارة الاوربية ــ الوافدة بشكل تدخل استعماري مباشر ــ والمجتمع العربي

واذا استثنينا بعض اعمال فرج انطوان الروائية ، التي كانت تطرح فكرا اشتراكيا علميا في مرحلة مبكرة من نشوء الراسمالية المصرية ، ورواية توفيق الحكيم « عصفور من الشرق ١٩٣٨ ، التي تناقش مجمل الحضارة الاوربية ، بما فيها الوضع القائم في روسيا بعد الثورة الاشتراكية ، اذا استثنينا ذلك ، نجد ان جهود الروائيين العرب انصبت بالدرجة الاولى على مناقشة حضارة اوربا الراسمالية في لقائها بالمجتمع العربي ، ولذا فان ما نعنيه بهذه البنية « الحضارة الاوربية » هو الحضارة الراسمالية على وجه التحديد .

الرواية العربية التعليمية والحضارة الاوربية :

اذا ما تساءلنا عن الوسائل التي تم عبرها الاتصال بين وطننا العربي والحضارة الاوربية ، وجدنا ان الرواية كانت من بين الوسائل المهمة التي تصدت لمهمة نقل الثقافة الاوربية ، وتعريف العرب عليها . وليس عجيبا ان يكون رفاعة الطهطاوي ، الذي ترجم رواية « وقائع تليماك » وهي اول رواية مترجمة تحت اعين العرب(٢) ،

٢ ــ د. محمد رشدي حسن : اثر المقامة في نشاة القصة المصرية الحديثة ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٧٤ ص٧٩ .

وبخاصة المصريين ـ الى فن جديد وفد اليهم من اوربا ، هو فن القصة ـ من ابرز الرواد الاوائل الذين تصدوا لنقل الثقافة الاوربية الى المجتمع العربي ، وتعريف المواطنين العرب بمنجزات الحضارة الاوربية .

وفي كتابه « تخليص الابريز في تلخيص باريس » الذي اعتبره بعض الباحثين(٣) تجوزا من نمط « الرواية التعليمية » ، تحدث الطهطاوي عن النظم المعمول بها في اوربا ودعا الى التخلص من الجهل ، واقتفاء اثر الغرب في علومه وفنونه التي بلغت درجة عالية من الرقي والكمال : « الذي يظهر لمن تامل في احوال العلوم والفنون الادبية والصناعية في هذا العصر بمدينة باريس ، ... قد انتشرت وبلغت اوجها »(٤) . واذا نحن حاولنا استجلاء موقف الطهطاوي من الحضارة الغربية وجدنا انه يقف موقفا غير متصلب من علم الحضارة الغربية وفنونها ، على حين كان موقفه من العلوم الدينية والفلسفية موقفا متصلبا « وانما نقول هنا

---

٣ ـ د. عبدالمحسن طه بدر : تطور الرواية العربية في مصر دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ص٥٥

٤ ـ د. محمود فهمي حجازي : اصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتابه (تخليص الابريز) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ص٢٩٦ .

ان كتب الفلسفة باسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجري فيها الحكم الثالث من الخلاف الذي ذكره صاحب متن السلم في الاشتغال بعلم المنطق ، فحينئذ يجب ان يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر من اعتقاده ، والا ضاع دينه »(٥) . وعلى هذا فان موقف الطهطاوي كان موقفا توفيقيا حاول ان يوفق فيه بين العلوم الازهرية وبين العلوم الرياضية والطبيعية في اوربا .

ولم يكن رفاعة يقصد بكتابه ان يكون رواية من اى نوع ، لذلك نجده يقسمه الى مقدمة ومقصد ، وثلاث مقالات ، ولعل تسمية ابواب الكتاب بالمقالات يوحي بانه كان يربط بينه وبين فن المقالة بالدرجة الاولى(٦) ، ولهذا السبب فنحن مدينون لرفاعة ، فيما يتصل بنشاة الرواية التعليمية بروايته المترجمة وقائع تليماك ـ التي اسلفنا القول عنها بانها اول مظهر من مظاهر النشاط الروائي في مصر ـ اكثر مما ندين له في كتابه (التخليص)(٧) .

---

٥ ـ نفسه ص٢٩٧ .

٦ ـ انظر د. عبدالمحسن طه بدر : نفسه ص٥٥ .

٧ ـ نفسه : ص٥٧ .

على ان الجهود التي بذلها رفاعة لا تقتصر على تصديه لتعريف المواطنين بعلوم الغرب، ودعوته الى تعلم هذه العلوم ، بل تتجاوز ذلك الى الجهد الفني والادبي الكبير ، مما دفع الى اعتبار كتابات رفاعة وتلاميذه بدء النهضة الادبية في مصر ، ورغم انه كان بدءا مضطربا(٨) فان كتاباته ـ اي رفاعة ـ كانت « مقدمة لرجوع النثر العربي الى طبيعته المطواعة التي لا تكلف فيها ولا صناعة ولا ارباك»(٩) وكان ذلك من نتائج امتزاج ثقافة رفاعة الازهرية بثقافته الفرنسية .

وقمين بنا ونحن نتحدث عن جهود رفاعة في النهضة العربية الحديثة ، ان نذكر جهود استاذه وسلفه حسن العطار مؤلف « مقامة الاديب الرئيس الشيخ حسن العطار في الفرنسيس » التي يدور موضوعها حول مقابلة الراوي للفرنسيين في حي الازبكية ، وكان العطار حريصا في مقامته « على فتح آذان الشعب وعيونه على حضارة الغرب ، فبث افكاره هذه على لسان الراوي وفيها يظهر تحبيذه لهذا . الا ان الوعي الوطني المتفتح الذي اتخذ صورة ايجابية له حين ثار القاهريون على

٨ ـ د. شوقي ضيف : الادب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف بمصر ، ط الخامسة ١٩٧٤ ص١٧١

٩ ـ د. محمد رشدي حسن : نفسه ص٨١ .

الفرنسيين في السنوات الثلاثة ، مدة احتلالهم لمصر ، جعل العطار الذي خشي على نفسه من تهمة طعن الحركة الثورية المصرية حينئذ يقول على لسان الراوي ، رافضا طلب الفرنسيين له بملازمتهم : « فسوفت في الاجابة ، واضمرت على عدم الانابة ، علما مني بان هذا امر تغوق عليّ منه سهام الملام ، وترمقني بالعداوة والاحتقار لاجله كافة الانام ، فرجعت لرشدي واستغفرت الله مما كنت فيه »(١٠) .

ولقد وقف العطار متذبذبا في معالجته لموضوع الاقتباس من الحضارة الاوربية ، ولم يصل الى راي واضح في هذه المشكلة ، وقد وضع افكاره حول لقاء الشرق بالحضارة الاوربية في اطار من الموروث القديم ، وهو فن المقامة . كما وانه لم يستطيع بسبب كون المحسنات البديعية اسلوبا متبعا في عصره ، ان يحرر اسلوبه من التكلف الذي لا تطيقه المعاني التي كان يريد ابرازها واظهارها(١١)

وتعتبر رواية (علم الدين) لعلي مبارك ثاني رواية تعليمية ، بعد (التلخيص) تطرح موضوع اللقاء بين المجتمع العربي والحضارة الاوربية . و

١٠ـ نفسه ص١١٤

١١ـ نفسه ص١١٥

« نقاط التشابه بين رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك كثيرة ؛ فكلاهما مصري من ابناء الفلاحين ، وكلاهما تثقف ثقافة ازهرية ؛ وكلاهما بذل جهده في محاولة التوفيق بين العلوم الازهرية وبين العلوم الغربية بعد ان سافر الى الخارج ؛ وكلاهما بذل غاية جهده لتعليم ابناء شعبه وتثقيفهم »(١٢) ؛ وقد وصف علي مبارك كتابه بانه جاء « كتابا جامعا اشتمل على غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية ، والفنون الصناعية ، وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر ... مفرغا في قالب سياحة شيخ مصري وسم بعلم الدين مع رجل انكليزي ، كلاهما هيان بن بيان ، نظمهما سمط الحديث لتاتي المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوربية »(١٣) .

وكما تتفق رواية علم الدين مع التخليص ومغامرات تليماك في هدفها التعليمي ، فانها تتفق معهما ايضا في انها أخذت شكل رحلة؛هي في التخليص وعلم الدين رحلة الى وفي خارج المجتمع العربي لان العلوم والفنون ومظاهر الحضارة الاوربية ، لم تكن قد انتقلت الى مجتمعنا العربي فكان على من

١٢ـ د. عبدالمحسن طه بدر : نفسه ص٦١

١٣ـ نفسه : ص٦٢ .

يريد الاتصال بها ، ان يسافر اليها ليتعرف عليها في موطنها الاصلي ، اوربا .

لكن علم الدين يختلف عن « التخليص » في ان الاخير لم يكن مؤلفه يحرص على العنصر الروائي ، بل هو كما اسلفنا ـ اقرب الى مقالات جمعت في كتاب . بينا يميل علي مبارك الى وضع افكاره عن الحضارة الاوربية في اطار قصصي ، لما رآه من ان « النفوس كثيرا ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام ، بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة ، فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان لاسيما عند السآمة والملال ص٦ـ٨ من المقدمة »(*) .

وعلم الدين بطل الرواية ابن فلاح مصري فقير استقر رايه على ان يرسل ولده الى الازهر رغم معارضة افراد العائلة ، وكانت احدى الوصايا الرئيسة التي اوصى بها الفلاح ابنه علم الدين ، ان يحافظ على الدين . ويتزوج علم الدين وينجب ولده برهان الدين ، ثم ينتدب للسفر مع سائح انكليزي عالم ويرغب في تعلم العربية . وهنا تنتهي المرحلة الاولى من الرواية لتبدأ المرحلة الثانية التي يصف فيها الكاتب مظاهر الحضارة الاوربية وما فيها من

* نقلا عن د. محسن طه بدر : تطور الرواية العربية في مصر

منافع ومضار ، وما يستطيع الشرق ان يقتبسه منها .

اما موقف المؤلف من الحضارة الاوربية فهو موقف المسالم للانكليز ولعامة الاوربيين ، وكان من رايه الاختلاط بهم والاقتباس من حضارتهم وثقافتهم ، دون ان يجد حرجا في ذلك ، ودون ان ينسى ان للعرب حضارة غابرة ، وانهم كانت لهم اليد الطولى في غزو العرب حضاريا وثقافيا ، وانهم كانوا مشعل الهداية للاوربيين الذين كانوا يعيشون في القرون الغابرة في حالة سبات . وحين يحتج تلاميذ علم الدين على آرائه في الاخذ والاقتباس من الحضارة الاوربية بقولهم مستشهدين بالآية الكريمة « لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة » يرد عليهم بالآية الكريمة : « وان احد من المؤمنين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله » . ويرجح بعض الباحثين ان الدوافع وراء هذا الموقف المسالم من الانكليز والاوربيين عموما هو كون المؤلف قد ابتدا كتابة روايته قبل الاحتلال الانكليزي لمصر (١٤) .

ورغم ما يشير اليه مبارك في مقدمته ، من اختياره للشكل القصصي في تقديم افكار ومعلومات

١٤ـ د. محمد رشدي حسن : نفسه ص.١٢ .

عن الحضارة الاوربية ، فانه اغفل الكثير من عناصر الفـــن الروائي ، فاجـزاء كتابـــه التي اسماها « بالمسامرات » لا يربطها اي رابط فني سوى رابط السياحة ، وهو ينصرف احيانا عن الرحلة ليتحدث في فصول كاملة خالصة عن العلم وحده ، وشخصياته شخصيات غير مقصودة لذاتها ، ولا تنبع من الرواية نفسها وانما هي مجرد ادوات لعرض افكاره ، فضلا عن ان الكاتب يغفـــل المنصر الدرامـــي ، وعنصر التشـــويق ، وهما عنصران تتميـــز بهما الرواية التعليمية(١٥) .

على ان موقف الكاتب من الحضارة الاوربية، الذي يتسم بالمرونة والعقلانية ، قد ترك سـمات وملامح فنية واضحة على اثـــره الادبي ، فابتعاد المؤلف عن السجع والمحسنات البديعية ، وكون كل مسامرة من مسامرات الكتاب تكاد تكون حلقة في سلسلة متصلة يربط بينهـــا رابط ظاهري هـــو السياحة ، والاسلوب الصحفي السهل غير المعقد الذي اتبعه المؤلف في عرض افكاره ، كل ذلك جعله يبتعد عن فن المقامة باتجاه فن القصة الحديثـة ، ولذا لا نعدم ان نجد من يعتبر علي مبارك اول روائي

١٥ـ انظر د. عبدالمحسن طه بدر : نفسه ص٦٦

مصري ؛ وكتابه علم الدين « اول رواية مصرية مؤلفة قام بها رائد عربي »(١٦) .

لقد اشار كل من الدكتور عبدالمحسن طه بدر، والدكتور محمد رشدي حسن الى الشبه الشديد بين شخصية علي مبارك وشخصية بطله علم الدين، مع بعض التغيرات الطفيفة التي اجراها المؤلف ؛ اقتضاها القالب الروائي . وهذه السمة ـ اي ان تكون الرواية سيرة ذاتية للمؤلف ـ رغم استخدام تقنيات فنية ذات دلالة موضوعية ؛ سمة عامة تنسحب على معظم الروايات التي عالجت موضوع اللقاء بالحضارة الاوربية ؛ كما سنرى فيما بعد .

١٦ـ د. محمد رشدي حسن : نفسه ص.١٢

حديث عيسى بن هشام

يتفق كتاب حديث عيسى بن هشام للمويلحي مع آثار رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك في انه كتب على شكل رحلة ، الا انه يختلف عنهما في ان هدفه الاول هو الاصلاح الاجتماعي ، ولذا اتجهت الرحلة فيه الى داخل المجتمع لا الى خارجه كما هو الامر عند الطهطاوي ومبارك اللذين كانا يهدفان الى تعليم العلوم الاوربية ، فاتجهت رحلتهما الى خارج المجتمع المصري تبعا لذلك . ويشير المويلحي في مقدمة كتابه الى هدفه في الاصلاح الاجتماعي قائلا «فهذا الحديث وان كان في نفســـــه موضوعا على نســـــق التخيل والتصوير ، فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال ، الا انه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا ان نشرح به اخلاق اهل العصر واطوارهم وان نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائض التي يتعين اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها »...

ولكي يحقق المؤلف غرضه في الاصلاح الاجتماعي بعث احمد المنيكلي ــ وهو ناظر الجهادية في عهد ابراهيم باشا ــ وكان قد توفي عام ١٨٥٠م ــ

من قبره بعد خمسين عاما من وفاته وجعله بطلا للحديث ليسجل على لسانه ما طرا على المجتمع من تغير خلال نصف قرن من الزمن وينتقل البطل مع الراوي عيسى بن هشام بين قطاعات المجتمع المختلفة ويتعرضان لها بالنقد والتحليل ، مبتداين بقطاع « البوليس والقانون » ليظهرا ما في اجهزة البوليس والقضاء من تفسخ وانحلال ، فالكاتب يصف ما جرى للباشا في قسم البوليس قائلا « فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدا المكارى يصرخ ويصيح ، فقابله احد عساكر المراسلة فضربه ليسكته ، لان « حضرة المعاون غريق في نومه . فدخلنا جميعا في حجرة الصول لضبط الواقعة ، فوجدناه ياكل والقلم في اذنه ، وقد نزع طربوشه ، وخلع نعليه وحل ازرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين ، اظنهما من اقربائه ، يشاهدان ما يتمتع به من لذة الامر والنهي وسمة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القصر وقاعدة الملك ، وما في قدرته من حبس اي شخص كائنا من كان وشهادته عليه ما يجري في دعواه ، فطردنا جميعا من الحجرة حتى ينتهي من طعامه فخرجنا ننتظر . ص١١ » .

ولا يعنينا هنا ان نتحدث عن المشكلات الاجتماعية الكثيرة التي عرض لها المويلحي بالنقد والتحليل ، بقدر ما يعنينا موقفه من الحضارة الاوربية ، التي

خصص لها المويلحي الرحلة الثانية في الكتاب ، فهو يرى ان اسباب الخلل والفساد في المجتمع المصري ناجم عن دخول الحضارة الغربية بغتة في البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين تقليدا اعمى .

فحين يسال الراوي الصديق الذي يرافق الباشا والراوي في رحلتهما عن « سرعة هذا الانتقال من حال الى حال ، وما الاسباب والعلل في انتشار هذا الفساد والخلل ؟ » .

يجيب الصديق قائلا : « السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدينة الغربية بغتة في البلادالشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع احوال معايشتهم كالعميان لا يستنيرون ببحث . »

وينعت الشرقيين المقلدين بانهم « تركوا . . . ما كان لديهم من الاصول القويمة والعادات السليمة والاداب الطاهرة ... واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الاجانب يرونه امرا « مقضيا » ... وخربنا بيوتنا بايدينا وصرنا في الشرق كاننا من اهل الغرب . ص٢٨٤ » .

وبحديث (الحكيم) الفرنسي عن الحضارة الاوربية نضع ايدينا على موقف الكاتب التوفيقي من هذه الحضارة ، يقول المؤلف على لسان شخصية الحكيم « لهذه المدنية الكثير من المحاسن ، كما ان

لها الكثير من المساوىء ، فلا تغمطوها حقها ، ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم ، وينافي طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعتها وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة تصد عنكم اذى الطامعين ، وشره المستعمرين وانقلوا محاسن الغرب الى الشرق ، وتمسكوا بفضائل اخلاقكم وجميل عاداتكم ، فانتم بها في غنى عن التخلق باخلاق غيركم ، وتمتعوا في رخاء بلادكم ، وسعة ارزاقكم ، واحمدوا الله على ما آتاكم ص٢٥١ » .

وفي الحديث الذي يدور بين ثلاث شخصيات فرنسية هي الكاتب والتاجر والحكيم ، يكشف المويلحي الطبيعة الاستعمارية لحضارة اوربا الغربية الراسمالية ، فعلى حين يرى الكاتب ان على الغربيين غرس المدنية في الانسان في كل مكان وازالة الوحشية والهمجية من الوجود . يجيب التاجر على حديثه قائلا : « نعم هكذا يجب ان تكون سيرتنا والا فكيف تسنى لنا تصريف بضاعتنا وترويج صناعتنا ، التي تقوم عليها معايشنا وتضيق بها ارضنا ... وكيف نجهد افهامنا في العلوم ، ونشقى ونتعب وفي العالم اقوام نيام على ارض من الذهب ... لا ينتفعون بها ولا يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة .. للذين

استحقوها بكشـــف اسرارها ورفـــع استارها ؟ ص٢٩٩ » .

ويصف الكاتب منجم الفحم ومنجـم الذهب اللذين زارهما الباشـا والراوي بصحبة الحكيـم الفرنـي فيعرض صورة لضروب المخاطر والارهاق الجسدي الذي يعاني منه العمال قائلا « ثم درنـا قليلا في معدن الذهب بعد ان انتهينا اليه من معدن الفحم فلم نجد ارباب العمل فيه اسـعد حالا ولا متاعبـه أهون احتمالا ، لا نصيب لهم من الاصفر الرنان ، مما يجلو عنهم صدأ الكروب والاحزان ، سوى انهم صفر الايدي من الفضة والذهب ، صفر الوجود من التعب والنصب ص٢٣٩ »

وحين يسال الباشا الحكيم قائلا : واين تذهب هذه المئات من الملايين من اثمان الفحم التـي هي ثمرة كدهم ونتيجة تعبهم ؟ يجيب الاخـر قائـلا : « تذهب الى فئـــة معينة من اربـــاب الشركات والامتيازات » فيعلق الصديق قائلا « من هنـا نشات المذاهب الاشـــتراكية ونحوها ، فانه كيف يصبر الانسان على هذا الحال يعمل عمل الحشرات في باطن الغبراء ، ليغني المقعدين في تصور العـز والهنـاء . ص٢٤١ » .

على ان تحليل علاقة الراوي ببعض اشخاص

الحديث يقودنا الى القول انه « انتمى الى الطبقة الخاصة من المجتمع ولم يثر على الطبقة الحاكمة في العهد القديم بل كان معجبا باخلاقها راغبا في اصلاحها فاهتم بالباشا احد ممثليها في المجتمع الجديد ، كما ظل خلال الرحلتين متعاملا مع افراد من الطبقة البرجوازية الصغيرة (المحامي ، الطبيب، الحكيم الغربي)(١٧) كما تعكس عبارة « رايت في المنام » ، التي ذكرت في اول الحديث (محاولة حفاظ من جانب الراوي على القيم الاصلية التي تبناها ، بطريقة تفر من المواجهة المباشرة للمجتمع وطبقاته الجديدة لتعمل على متابعته وتحليله في حالة الانزواء والعزلة ولعل لهذا السبب لم تكن حركته المضادة مجدية في المستوى العلمي وحتى في المستوى النظري ، اذ ان حل التوفيق بين مادية الغرب وروحانية الشرق محاولة مثالية فاشلة ، لانه لا يعدو ان يكون تلفيقا بين نمطين من الحياة الاجتماعية ظهر احدهما في واقع خارجي وظهر الاخر في واقع محلي داخلي ، ولانه تسبب بطريقة غير مباشرة في خلق وضع الانتقال المحجوز الذي تردى فيه المجتمع المصري من جوانبه المختلفة اذ يرجع تدهور هذا المجتمع الى المدنية الغربية بصورة

١٧ـ محمد رشيد ثابت : حديث عيسى بن هشام ، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ١٩٧٥ ص٢٩٠ .

عامة بدلا من ارجاعها الى التحديات الاستعمارية واشكال هيمنتها »(١٨) التي أدت الى تفكيك علاقات الانتاج السابقة على الراسمالية في المجتمع المصري وولدت علاقات انتاج جديدة هي شكل محدد من علاقات الانتاج الراسمالية الكولونيالية التبعية(١٩).

لقد انعكس موقف المويلحي من الحضارة الاوربية على شكل الحديث فقد أعتبره بعض الباحثين اقرب الى فن المقامة منه الى فن القصة(٢٠) واعتبره باحثون اخرون كالدكتور علي الراعي بداية الرواية المصرية رغم ما فيه من مظاهر فن المقامة « فغير منكور مع هذا ان هذه البداية لا توجد بحالة نقية في الكتاب فانها تتصارع .. مع المقامة وتتحول في مراحل من هذا الصراع الى فن وسط هو فن رسم الصور الاجتماعية والاستكشات »(٢١) . على ان معظم الدارسين يذهبون الى ان الحديث هو

١٨ـ نفسه : ص٢٩١ .
١٩ـ انظر مهدي عامل : ازمة الحضارة العربية إم ازمة البرجوازيات العربية ؟ دار الفارابي ـ بيروت ص٥٨ـ٥٩
٢٠ـ انظر سيد حامد النساج : تطور القصة القصيرة في مصر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ ص١٥ ومحمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٣ ص٧١ .
٢١ـ د. علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية : المؤسسة المصرية العمة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٤ ص٢٢ .

حالة وسطى بين فن المقامة وفن القصة الحديثة(٢٢) فالمويلحي « لعله لم يصل الى احساس حقيقي (بالعقدة) كما ينبغي ان تكون– في عمل قصصي حديث ، ولكن المقامة على كل حال قد تخلصت على يديه من الموضوع التقليدي والشخصية التقليدية ؛ كما تخلصت من التزام اسلوب مسجوع تتخلله ابيات من الشعر ، فاخذت موضوعاتها وشخصياتها من مجالات الحياة المختلفة وخرجت من السجع الى الاسلوب المرسل في كثير من الاحيان(٢٢) .

وقريب من راي الدكتور شكري محمد عياد هذا ؛ راي علي ادهم الذي قدم للحديث قائلا : « لقد راعى المويلحي ذوق المحافظين فصاغ كتابه على طريق المقامات ، وسلك من ناحية اخرى سلوك المجددين في رسمه للمواقف وتصويره للاشخاص(٢٢) اما الدكتور محمد رشدي حسن فيرى أن المويلحي كان قاصا ومقاميا في آن واحد « كان المويلحي قصاصا في حديثه لانه جمع فيه عناصر القصة ...

٢٢– انظر محمود حامد شوكت : الفن القصصي في الادب المصري الحديث . دار المعارف بمصر ١٩٥٧ ص٦٤ وعباس خضر : القصة القصيرة في مصر منذ نشاتها حتى ١٩٣٠ الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ص٥٣ .

٢٣– د. شكري محمد عياد ، القصة القصيرة في مصر (دراسة في تاصيل فن ادبي) معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ – ١٩٦٨ ص٧٩ .

وكان المويلحي مقاميا كما كان قاصــا فمعظم اضلاع المقامة موجودة فيها »(٢٤) .

اما الدكتور شوقي ضيف فيرى في الحـديث تجسيدا لموقف المويلحـي التوفيقي من الحضـارة الاوربية « فهذه ليست شـــرا خالصا ولا بأس ان نســتخدمها ، ولكن على ان نوافــق ما نستمده وتقاليدنا وطباعنا وامزجتنا وروحنـــا الشرقية ، وبعبارة ادق ان نمصره على نحو ما مصّر المويلحي القصة الاجتماعية في حديث عيسى بن هشام »(٢٥)

ان القائلين بان الحديث هو استمرار لفن المقامة ، لما حفل به من سجع وجناس ومحسنات بديعيـة يجعلون للناحية الاسلوبية وجودا مستقلا بذاته ، ويتغافلون عن حقيقة ان ظاهرة السجع ظلت مسيطرة على النثر العربي طوال القرن التاسع عشر . وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف : « وعلى هـذا النحو مضينا في النصف الاول من القرن الماضي وغير قليل من النصف الثاني لا نملك من وسائل التعبير النثري سوى هذه الوسيلة الضيقة ، وسـيلة

٢٤ـ محمد المويلحي : حديث عيسى بن هاشم او فترة من الزمن . الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤ ص ط من المقدمـة .

٢٥ـ د . شوقي ضيف نفسه ص٢٤٠ ـ ٢٤١ .

السجع والبديع التي تخنق الكلام ، وتحول بيننا وبين التعبير الحر عما نريد ... فانحصر نثرنا في هذه الصناعة الراكدة الجامدة ، ولم يستطع التيار الغربي ان يحرره ولا ان يخلصه من اثقاله واغلاله »(٢٦) .

ويعلل ضيف هذه الظاهرة بكون الاتصال المنظم بين العقل المصري الخالص والعقل الغربي الحديث اقتصر (في اول الامر على النواحي العلمية والفنية التطبيقية ، اما النواحي الادبية فظل فيها الاتصال معدوما او كالمعدوم ، اذ لم تحدث علاقة حقيقية بيننا وبين الاداب الغربية) (٢٧) ، كما يرى ان جمود العقل المصري وانطواءه على صورته الموروثة ، يعود الى عهد محمد علي الذي عني بكبت الشعور الوطني لدى المصريين (فظل الشعب بعيدا وظلت لغته معه متخلفة لا تتطور اذ لم يكن هناك بواعث سياسية ولا قومية تدفعها الى هذا التطور . (٢٨)

ويفسر الدكتور عبدالمحسن طه بدر دافع

٢٦- د. شوقي ضيف : نفسه ص٢٤١

٢٧،٢٨ - نفسه ١٧٠ .

المويلحي الى استخدام فن المقالة بما تركه الاحتلال الانكليزي لمصر عام ١٨٨٢م بعد فشل ثورة عرابي، من ردة فعل عنيفة لدى المثقفين المصريين « حملهم فيما يتصل بالفكر والادب على الدعوة الى احياء التراث العربي القديم ، فكانت الكلاسيكية المحدثة التي يمثلها البارودي في اواخر القرن التاسع عشر ثم حافظ وشوقي في أوائل القرن العشرين ، هي التعبير المباشر عن هذه الدعوة . ولما كان التراث العربي القديم في القصة غير واضح المعالم ، فقد بحث المثقفون المصريون عن شكل ادبي عربي قديم يتلاءم مع حاجتهم فالتقوا بفن المقامة واستخدموه كاطار فني لعرض افكارهم في الاصلاح الاجتماعي ونقد المجتمع »(٢٩) .

على ان الباحث محمد رشيد ثابت ، الذي ينطلق من اتجاه النقد الاجتماعي ، يرى ان الشكل الادبي المتحول الذي عبر عنه الحديث ، ظهر في فترة تحول المجتمع المصري م نالارستقراطية الى الراسمالية(*) ، ومن تحليله لذهنية الراوي المماثل

٢٩- انظر د . عبد المحسن طه بدر : نفسه ص ٦٧ .

* من المعروف ان رواد النظرية الاجتماعية في الادب (ماركس انجلز ، لينين ، لوكاش ، فيشر) يعتبرون القصة من نتاج الطبقة البرجوازية . الا ان الناقد الروماني لوسيان ←

لذهنية المويلحي ووضعه الطبقي المشابه لوضع المويلحي ، الذي ظل يعيش في حمى النظام الجديد كما ظل افراد اسرته متصلين بالطبقة الحاكمة ... وبانتقال الطبقة المذكورة من الاقطاعية الارستقراطية في عهد (محمد علي) الى الراسمالية ، اثر ارتباط البلاد المصرية اقتصاديا وسياسيا بالعالم الغربي تعرضت اسرة المويلحي تبعا لذلك لتحول الطبقة التي ارتبطت بها دون ان يتحول الواقع الطبقي لافرادها »(٢٠) وينتهي الباحث الى القول بان الحديث « يعبر عن شكل ادبي قار بقدر ما عبر عن شكل ادبي متحول انطلق من اساليب الاشكال التقليدية الاصلية ، الى اساليب اشكال البناء القصصي ، كما لاحظنا ان محاولة الكاتب الانطلاق

جولدمان — وهو من البنيويين التوليديين — يرى ان فن القصة هو من نتاج المجتمع الراسمالي لا الطبقة البرجوازية ، كما يعتبر فن القصة فنا اشكاليا يبحث فيه البطل عن قيم اصيلة وسط عالم متدهور اخلاقيا ، والصراع في القصة او الرواية هو صراع بين القيم الزائفة الظاهرة التي تحرك البطل والقيم الانسانية الاصيلة غير المرئية التي زالت في المجتمع الراسمالي ولكن تاثيرها في النفوس باق . ومن الواضح ان الباحث محمد رشيد ثابت يحاول تطبيق منهج جولدمان في دراسته للحديث .

٢٠— محمد رشيد ثابت : نفسه ٢٩٢ — ٢٩٣ .

من شكل ادبي اصـيل (الحديث ، والمقامة) انتهت بتصدع هذا الشكل وعبرت عن فشل هذه المحاولة ... كما لاحظنا ان محاولة الراوي الانطلاق من قيــم اصيلة لهــا صلة وثيقــة بقيم الطبقــة الارستقراطية ، لفهم الواقع الجديد الذي فرض عليه اقتصاد الراسمالية الغربية ، وابراز تدهور قيمه ، انتهت الى اقتــراح توفيقي في المستوى الفكري بين القيم الاصلية للمجتمع المحلي والتطور التقني للحضارة الغربية دون ان يقدر على تجسيم هذا الاقتراح في المستوى العلمي »(٢١) .

٢١ـ محمد رشيد ثابت : نفسه ص٢٩٢

رواية الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث

ان اغلب ممثلي التيار التوفيقي من الكتاب المصريين ، كانوا من المسلمين ، وفي نفس الوقت الذي كان فيه هؤلاء المؤلفون يتمسكون باحياء التراث العربي القديم ، ويرون فيه حلا مثاليا لتقدم المجتمع ، لا نعدم ان نجد من يدين بالولاء التام للفكر الاشتراكي العلمي ، الذي كان واحدا من التيارات الفكرية الكبرى ، التي انتجتها حضارة اوربا الصناعية .

ولقد كان فرح انطوان — وهو من المهاجرين المسيحيين من الشام — ينقل في مجلة الجامعة مذاهب هذه الحضارة وافكارها في الاصلاح الاجتماعي، ويناقش الافكار الاشتراكية والشيوعية في ذلك الوقت المبكر من نشوء الراسمالية المصرية، التي كان (حديث عيسى بن هشام) تعبيرا واضحا عن نشوئها .

وفي الكلمة التي قدم بها فرح انطون لروايته الدين والعلم والمال ، التي صدرت عام ١٩٠٣م ،

يحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء اقوياء والاقوياء ضعفاء ، ويتحدث عن روايته فيقول ان موضوعها « ذكر مدينة الدين ومدينة العلم ومدينة المال ، وما جرى بين سكانها من النزاع ودعاوى كل فريق على خصمه ، وكيف انتهت مشكلتهم التي هي اليوم اكبر المشاكل عند الامم ، والشغل الشاغل لفلاسفة العمران ورؤوساء الحكومات » ويستطرد المؤلف ذاكرا هدفه التعليمي فيقول « ولما وصلنا في ابراز مواد الجامعة في المواضع المهمة التي تكمل مباحثها السابقة ، خطر لنا ان نهجر اسلوب المقالات المنطقية ، والفصول المتفرقة الى اسلوب الرواية ، لانه اجمع واوعى ، فضلا عن كونه اشد تاثيرا واحسن وقعا ، وسيكون اهتمامنا بها بالمبادىء والافكار مقدما على الاهتمام بالحوادث والاخبار ، وقد سميناه هنا رواية على سبيل التساهل لانه بحث فلسفي اجتماعي في علائق المال والعلم والدين ، وهو ما يسمونه اليوم في اوربا بالمسالة الاجتماعية ، وهي عندهم في المنزلة الاولى من الاهمية »(٢٢) .

والنصان المقتبسان من رواية فرح انطون يؤكدان حقيقتين مهمتين جديرتين بالانتباه ، اولهما

٢٢ـ نقلا عن د . عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية في مصر .

ان التيار التعليمي في الرواية العربية في مصر ، قد انتقل منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من مناقشة موضـــوع التفوق العلمي لاوربا والدعوة الى تعلم العلوم الاوربية الى مناقشة موضوعات الاصلاح الاجتماعي ، وثانيهما ان الولاء التام لتيار فكري معين في الحضارة الغربية ، قد ادى الى تحرير هذه الرواية من الاساليب الموروثة ومن السجع والمحسنات البديعية ، وانتقل بهـا الى استخدام الاسلوب المرسل في النثر على عكس التيار الفكري التوفيقي الذي لم يستطع ان يتحرر من قيود المقامة وما تحفل به من سجع ومحسنات بديعيـة .

الرواية التعليمية في العراق
والعضارة الاوربية

وفي العراق صدرت اول رواية تعليمية عام ١٩١٩ وهي الرواية الايقاظية لسليمان فيضي ، التي جمعت بين الدعوة الى تعلم العلوم الغربية ، والدعوة الى الاصلاح الاجتماعي . ومن الواضح ان الكاتب قد تاثر والى حد كبير بالروايات التعليمية المصرية وبخاصة حديث عيسى بن هشام اذ يذكر هو ايضا في مقدمة روايته انه رآها في المنام تشخص في قاعة واسعة ، كما ان المؤلف لم يستطع التخلص م ن قيود المقامة ، فجاء اسلوبه مقيدا بالسجع والمحسنات البديعية ، وقد جاء الجزء الثاني من هذا الاثر على شكل رحلة ، كما هو الامر في ــ الحديث ــ لكن الرحلة لا تتم الى اوربا ، بل الى الحبشة لتحكي مغامرات تشي بتاثر الكاتب بالروايات الرومانسية الرديئة التي تقوم على ما هو خارق وعجيب . هذا فضلا عن الاثرات الواضحة من قصص الف ليلة وليلة في الكتاب .

على ان استخدام الكاتب لشكلين في كتابه هما الشكل الروائي والشكل المسرحي معا ، واشارة الكاتب الواضحة في المقدمة ، الى انه رآها في المنام تشخص من قبل ممثلين على المسرح(٢٣) ، يدل على ان المؤلف كان يهدف الى وضع مسرحية لا رواية. ولا عبرة في عنوان الكتاب فقد كان مصطلح الرواية آنذاك يعني فيما يعني المسرحية ايضا .

على ان رواية تعليمية اخرى اخذت شكل الرحلة الى خارج المجتمع العراقي ، والى اوربا بالذات ، صدرت عام ١٩٢٨م واعني بها رواية « عجائب الزمان في صرح عروس البلدان » لاكوب جبرائيل المحامي . وقد تواقت ظهورها مع ظهور رواية جلال خالد لمحمود السيد ، وهي اول رواية تحليلية فنية تظهر في العراق .

وقد رمز المؤلف للعراق بـ (عروس البلدان) وقد وصف كل انواع الاستعمار التي ابتلى بها العراق حتى العصر الحديث . الا ان المؤلف يدين بالولاء التام لاشكال الهيمنة الاستعمارية على العراق ؛ فهو يصف المحتل الانكليزي بـ « الجبار الذي ازاح الظلم» ويصف اثر الاحتلال البريطاني على

٢٣- انظر مقدمة . الرواية الايقاظية مطبعة الحكومة البصرة ١٩١٩ ص ٢ .

العراق قائلا « فاستنهض الرئيس همم القوم وعزائمهم ، وبث فيهم روح الرجاء والحب والتآلف واقام لهم معلمين ومدرسين ، يلقنونهم العلوم الضرورية ويدربونهم على اقتباس الحكمة. ص١٥»

وبطل الرواية (بهلول) يقوم برحلة سياحية الى بلاد الغرب بعد أن سمع عن جمالها ، وهو يروي ما شاهده في هذه البلاد من مظاهر العمران والتمدن ؛ محاولا ازالة الشعور السائد لدى المواطنين العراقيين بالتناقض بينهم وبين الهيمنة الاستعمارية لهذه الحضارة قائلا : « لقد طالما جال في مرآة مخيلتي ان لا ديانة ولا ايمان من اولاد عروس الغرب ، فخجلت حينئذ ، واصلحت ما ارتكبته من الخطأ ، وزالت عني غياهب الظلام ؛ اذ حكمت حكما وهميا بعدم التدين على ابناء عروس الغرب وشعرت اذ ذاك بنقص التعليم في وفي سائر اخواني . ص١٨ » .

وعلى الرغم من ابتعاد المؤلف نسبيا عن المقامة ؛ وعن استخدام السجع والمحسنات البديعية ؛ فانه لم يستطع ان يتحرر من تأثير الرواية التعليمية التي سادت مصر في اواخر القرن التاسع عشر كعلم الدين لعلي مبارك وحديث

عيسى بن هشام للمويلحي(٢٤) ، رغم ان المؤلف كان يهدف الى كتابة رواية فنية ، بدليل انه يضع تحت عنوان كتابه عبارة (رواية تاريخية أدبية اجتماعية) .

٢٤ـ انظر : شجاع مسلم العاني المرأة في القصة العراقية سلسلة الكتب الحديثة ـ وزارة الاعلام ١٩٧٢ ص ٢٩ .

الرواية العربية الحديثة والحضارة الاوربية

لقد انتهت الرواية التعليمية الى ضرورة اقتباس علوم الغرب والافادة منها والى ضرورة التغيير الاجتماعي ، والى التحذير من اغفال الجوانب الجوهرية في الحضارة الغربية والاقتصار على قشور هذه الحضارة ، واتجهت الى نقد رذائل المدنية الغربية الحديثة ، التي جاء بها الاستعمار وتفشت في بيئات الاغنياء بخاصة .

الا ان مفهوم الادب لم يلبث ان تغير عند طائفة كبيرة من المثقفين العرب ، الذين ارادوا أن يكون الادب تصويرا للحياة ، وليس مجرد ثوب لفكرة علمية او اجتماعية ، فبدأت تظهر أعمال فنية جديدة .

ولقد نشأت هذه الطائفة من المثقفين العرب في ظل ثورة ١٩١٩م القومية في مصر وفي « أحضان هذه الثورة نشأت موسيقى سيد درويش ونشأ أدب المدرسة الحديثة ... وكلاهما منبعثان من حاجة ملحة لايجاد فن شعبي صادق الاحساس

.... الى ادب واقعي متحرر من التقليد واقتباس الاخيلة من الغير »(٢٥) وهكذا نشأت القصة الحديثة على يد محمود تيمور ، وعيسى عبيد ، ويحيى حقي ، ومحمود طاهر لاشين .

لقد كان هذا الجيل جيلا ثوريا في مجال الثقافة ، فقد وضع ابناؤه « الثقافة العربية على بداية مرحلة عنيفة من صراع الاضداد ، فافكارهم المحدثة اثارت ثائرة المحافظين ، ودعت هؤلاء الى اتخاذ موقف اكثر تشددا من موقف اسلافهم في الجيل السابق . وصورة التغيير الكاسح في شتى مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية ، وبخاصة حرية المراة وعلمانية الدولة ، جعلت جماهير الطبقة المتوسطة ـ الطبقة المسموعة الصوت حتى الان ـ تشعر بالحيرة والضياع »(٢٦) .

لقد اقترنت الدعوة الى اقتباس الاشكال الفنية من الغرب ، على يد هذا الجيل بالدعوة الى تصوير الشخصية القومية المحلية وبخاصة من الطبقات الشعبية ، ولعل انتقال الكثير من رواد

٢٥ـ يحيى حقي : فجر القصة المصرية : الهيئة المصرية ـ العامة للكتاب جـ٢ ص ٧٧ .

٢٦ـ د. شكري محمد عياد : الادب في عالم متغير الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، ص ١٢ .

هذه المدرسة من التأثر الذهني بالادبين الانكليزي والفرنسي الى قراءة واحتذاء الادب الواقعي الروسي ، كان مظهرا من مظاهر الحرص على تصوير الشخصية المحلية ومظهرا من مظاهر الواقعية التي اتجهت اليها هذه المدرسة ، ذلك ان رواد هذه المدرسة لم يكن يبهرهم ادب غوغول وبوشكين وتولستوي ودستويفسكي وارتزيباتشيف وغوركي لولا ما وجدوه في هذا الادب من « اجواء توافق مزاج الشاب الشرقي الملتهب العاطفة المحروم من الحب »(٢٧) ومما يحفل به هذا الادب من دراسة عميقة للمشاكل الاجتماعية وللنفس البشرية ، ولما يتميز به من احتفال في وصف الطبيعة .

على ان ثمة من الباحثين من يرى ان فكرة الحداثة لدى هذا الجيل « برغم ما كلفت اصحابها من جهد ... وما حشدوا لتأييدها من منطق ، كانت فكرة تقوم على تفاؤل شديد ، بل لا تخلو من سذاجة . اما التفاؤل فلأن الحضارة الغربية بدت لاصحاب المدرسة الحديثة في صورة مثالية فلم يلتفتوا الى ما فيها من تناقضات ... واما السذاجة فلتصور ان الاخذ طريق سهل ، فهو يبدأ تقليدا

٢٧ـ يحيى حقي : نفسه ص ٨٢ .

ومحاكاة ، ثم يستحيل التطبع طبعا ولا تلبث أن تظهر شخصيتنا القومية من خلال القوالب التي استعرناها من الغرب(٣٨) .

ويستدل القائلون بهذا الراي ، على صحته ، بما حدث لدى اقطاب المدرسة الحديثة ، من رجعة الى الموروث ، تعبر عن اهتزاز ايمانهم بالثقافة الغربية المعاصرة فعلى حين عاد طه حسين والعقاد الى التاريخ الاسلامي يعكفون على دراسته بنبرة اسلامية واضحة يرافقها الحنين الى فردوس مفقود اظهر كل من توفيق الحكيم في يوميات نائب في الارياف وعصفور من الشرق ، ويحيى حقي في قنديل ام هاشم . ان نظم التعليم والقضاء والحكم التي اقتبست من اوربا بعيدة عن الواقع الذي يعيشه الناس ، مجافية لميول النفس الشرقية .

وآية ذلك كله « ان المدرسة الحديثة التي وضعت الفكر العربي المعاصر على بداية صراع الاضداد كانت تنظر الى الامور نظرة ميتافيزيقية لا نظرة جدلية ، وبذلك عجزت عن تفهم القانون الاساسي في التطور فبقي مفهومها للتغير معلقا بين

٣٨ـ د. شكري محمد عياد ، نفسه ص ١٤ .

السماء والارض(٣٩) فما ان كشفت حضارة اوربا الراسمالية عن جوانب الشر فيها ؛ كطغيان النازية وقيام الحرب العالمية الثانية ، واغتصاب الصهاينة لارض فلسطين العربية وغير ذلك من الجرائم التي ارتكبها الاستعمار ، حتى تحول رواد هذه المدرسة من قطب التفاؤل في نظرتهم الى الحضارة الاوربية الى القطب المضاد تماما .

ان هذا التحول لدى بعض رواد المدرسة الحديثة ؛ لا ينفصل في راينا عن ازمة الطبقة المتوسطة في مصر ، ذلك ان ما ارتكبه الاستعمار من جرائم ؛ لا ينتهي بمعاداة الحضارة الاوربية كليا ، والدعوة الى الرجعة ، وانما بالنضال ضد الاستعمار واستشراف الافاق الانسانية الرحبة للحضارة الاوربية ، ذلك ان موقف هؤلاء الرواد ينتهي بالتالي الى تكريس التخلف الذي يعيشه العالم العربي وهو الامر الذي يريده المستعمر ويسعى من اجله . وليس عجيبا بعد ذلك ؛ ان الداعين الى السلفية والتنكر لحضارة اوربا بدعوى القضية القومية ؛ وبخاصة قضية فلسطين ، كانوا من اوائل الذين باركوا خطى البرجوازية المصرية نحو الاعتراف بالكيان الصهيوني ومن اوائل من

٣٩ـ د. شكري محمد عياد : نفسه ص ١٦ .

بارك خطى البرجوازية المصرية على طريق الرجعة والتنكر لثورة ١٩٥٢ القومية ، وضرب المكاسب التي حققها الشعب العربي في مصر ، والانفتاح على السوق الراسمالية الغربية وربط الاقتصاد المصري بالتبعية الامبريالية .

عصفور من الشرق ـ ١٩٣٨م

تعتبر الرواية الحديثة التي طرحت موضوع اللقاء بين الحضارة الاوربية والشرق العربي امتدادا للرواية التعليمية في اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، من حيث انها هي ايضا تاخذ شكل الرحلة خارج المجتمع العربي ، وبالذات الى البلدان الاوربية لكنها تختلف عنها في ان الرحلة لم تعد رحلة سياسية كما هو الامر في الرواية التعليمية ، فالبطل في كل هذه الروايات يسافر الى بلدان اوربا بغية التحصيل العلمي ومن اجل المعرفة وعبر هذ هالوسيلة يقع احتكاكه بالحضارة الاوربية وفي معظم هذه الروايات يكون لقاء البطل الشرقي بالمراة الاوربية هو الوسيلة التي يكتشف البطل من خلالها ابعاد الحضارة الاوربية ، وهذا التجنيس لعلاقة الثقافة في الرواية العربية دفع بعض الباحثين الى القول بان « قائمة خطايا المثقف الشرقي او الكولونيالي المغترب تبدو لا متناهية ، وياتي في راس هذه القائمة قبوله بمنطق الغزوة المتروبولية : تسليمه بان العلاقات بين الامم والحضارات هي

كالعلاقة القائمة واقعا بين الرجل والمراة : علاقة قوة وتحكم وسيطرة ، وبالتالي استسلام ورضوخ ومماناة ، فكان ان تبنى بدوره التصور المتروبولي القائل بان الثقافة مجامعة . واحتقاره (الشرقي) شبه الازلي للمراة جعله يقع بسهولة في براثن تلك اللعبة ... فالتجنيس فرضته بالفصل ضرورة الترميز الفني ولكن مالا يجوز ان يغيب عن البال ان منطق الرمز هو نفسه رمز لمنطق : رجل في عالم رجال وثقافة رجال ورواية رجال والادهى من ذلك انهم رجال شرقيون»(٤٠) .

تروي عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم قصة علاقة حب بين طالب مصري هو محسن وبين قاطعة تذاكر سينما فرنسية تدعى سوزي ديبون ، ومنذ الصفحة الاولى نجد ان محسنا هذا يريد لنفسه ان يكون متفردا . ومتميزا عن البشر فهو يثبت للمطر على حين يلجأ جميع الناس الى مظلات المشارب والحوانيت وافاريز البيوت ومداخل المترو ، ويتجسد موقف محسن وتفرده في العبارة التي نقشت على قاعدة تمثال الشاعر دي موسيه ، التي وقف يرددها : « لا شيء يجعلنا عظماء غير الم عظيم ص١٤ » وهكذا يكون مصير محسن قد تحدد

٤٠ـ جورج طرابيشي ، شرق وغرب ، رجولة وانوثة ـ دار الطليعة بيروت ١٩٧٧ ص ٣٧ .

منذ الصفحة الاولى في الرواية ، فالالم سبيله الوحيد الى التفرد .

اما الطريق الى الالم فهو الحب الخائب لفتاة شباك التذاكر سوزي ، التي يكتفي محسن بمراقبتها حتى اذا انفض الناس عنها تقدم اليها قائلا « بونجور مدموازيل » حتى اذا ردت عليه التحية ؛ وقف يطيل النظر اليها صامتا ؛ ثم لا يلبث ان يتحرك قائلا « اورفوار مدموزيل » . ويصر محسن على ان تبقى علاقته بسوزي على هذا المستوى الحلمي الرومانسي ، تحقيقا لفكرته عن الحب والحياة ، الفكرة القائلة بان الخيال وحده قادر على ان يرتفع بالانسان الى عالم علوي عبقري . وليس من قبيل الصدف ان (محسن) يتذكر وهو جالس امام مسرح الاوديون تجربة عمه في « عودة الروح » اليوزباشي سليم ، الذي كان انسانا عاديا ؛ غير ان حبه لسنية جعل منه رجلا آخر ، رجلا تعمر قلبه احساسات عليا ؛ وحفاظا على هذه الاحساسات العليا من الانهيار ، كان سليم يجلس في المقهى شاخصا ساعات طوال الى نافذة سنية ؛ حتى اذا ملت سنية الانتظار ، وبقاء العلاقة على صعيد الحلم الرومانسي هذا اعرضت عنه ؛ فلم يجد مناصا من ان يهجر الحلم الى الواقع ؛ فتزوج من احدى قريباته وانجب منها ولدين « وأصبح

ذا جسم ممتلىء وكرش محتـــرم ، اما شارباه القائمان فقد هوت بهما الايام ، واتخذت حيـاة هذا الرجل المحتـــرم ، الشكل المألوف في حياة الملايين من هذا النحل البشري ص٦٣ » .

ولكي يحافظ محسن على هذا الالم وعلى استمراه ، يتحول بعلاقتـه بسوزي من المستوى الخيالي الحالم ، الى المستوى الواقعي ، حتى اذا تكشف له الواقع عن صورة غير الصورة الملائكية الخيالية التي رسمها لسوزي في خيالـــه ، عاد ليهجر الواقع من جديد ، وليلوذ بالحلم ، والالم المئليم يقطع نياط قلبه ، الالم الذي ينشد منـه ان يرتفع به الى مستوى الابداع والعبقرية .

ومحسن شخصية متفردة حتى في وسائله التي يستخدمها في الوصول الى قلب سـوزي ، فهو رغم نصائح صديقيه اندريه وزوجه جرمين ، بان يقدم لسوزي زجاجة عطر او باقة زهر ، يرفض ان يقدم لمعبودته شيئا من هذين الاثنين ، ويرى فيهما استهانة بسوزي وانحدارا بعلاقة الحب وهبوطا فيها الى مستوى (النمـل البشري) . ويلجأ محسن الى وسيلة غريبة وغير مالوفة ذلك انه يقدم لسوزي خلافا لما جرى عليه العرف تفصا في داخله ببغـاء .

ويصدم محسن ، عندما يكتشف ان اقامة علاقة بمعبودته سوزي اهون بكثير مما صور له خياله ، وتزداد صدمته شدة حين تصبح القبلة اولى بينهما « حقيقة واقعة .... لا وهم فيها ولا غموض » ثم يجهز اندريـة على ما تبقى من الصورة الخيالية الحالمة لمعبودته ليحطم صنمها بشكل نهائي ، حين يقول لمحسن :

« ـ ارايت انها فتاة ككل الفتيات . ؟ وعاملة كآلاف العاملات ؟ تلك التي اسكنتها قصرا من قصور الف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها الى مواكب البشر المتدفقة تحت شباكها . ص١٢٨ » .

ولكي تكتمل هزيمة محسن ومأساته ، يسارع القاص في كشف سوزي ، فاذا هي مجرد فتاة ارتضت ان تبيع جسدها لهنري صاحب دار السينما التي تعمل بها ، لكي تستطيع مواصلة العمل والحصول على لقمة العيش ، وفي المطعم الذي يلتقي به محسن وسوزي ، يتحطم صنم المعبودة نهائيا ، عندما يدخل هنري فجاة فيراهما جالسين معا فتعمد سوزي الى مجلة تدفن فيها راسها ، متظاهرة بتقليب صفحاتها ومتجاهلة اسئلة محسن بصورة كلية :

« ــ ثقي ان خليلك قد اقتنع الان كل الاقتناع
انك تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة
على الحديث مع مثلي ... نعم فهم الان
اني لا اساوي شيئا في نظرك .

فلم تقل شيئا فقال :

ــ لعلك تريدين ان يفهم اكثر من ذلك فيرى
اني لست اكثر من معجب مفتون من
اولئك المغفلين الاجانب الذين يشفقون على
الغانيات ويتقبلون في رضى اعراضهن
واهمالهن وازدرائهن .

ومضى على عجل دون ان ينظر اليها وخرج
من المطعم خروج آدم من الجنة ص٠١٤٠ــ١٤٢ »

لقد اكتشف ان ملكته ليست ابعد ما تكون
عن الصورة المتخيلة فحسب ، بل ولاعبة ماهرة ،
انثى خالدة مجبولة بطين المكر والخداع ، فهي قد
اتخذت منه وقودا لايقاظ حرارة الغيرة في قلب
هنري .

انها لعبة الحلم والواقع ، كما يقول طرابيشي
فلو كان الخيار بيد محسن لاختار الشيء الجميل
الذي لن ياتي ... ما دام مجيئه يعني ذبول تلك
« الاحساسات العليا » وتحول الكائن المتفرد ،

المتاله بتاليهه معبودته الى واحد من « ملايين هذا النمل البشري »

ولكن الخيار في يد توفيق الحكيم ... والحكيم يريد لمحسن ان يتالم ، يريد للحلم ان ينتهي ، للصنم ان ينهار ، وللحب ان ينجح ، كي يفجر في خاتمة المطاف ينبوع الفن . اذن لا مفر امام محسن من ولوج عالم الواقع .

هكذا على حين غرة ينقلب محسن وقد سئم الانتظار الى فيلسوف واقعي « ان سر تعاستنا هو اننا نعيش في هذه الحجرات المغلقة ... اننا نجهل الواقع وطرائقه المباشرة ... لا شيء يكتسب بالخيال في هذه الحياة » . ولكن الرد على هذه التبريرات ياتي في صورة هجاء عنيف ولاذع للواقع والواقعية ، على لسان صديقه الاخر ، ايفان المتصوف الروسي الرؤيوي النخبوي « الواقع والطرق العلمية ... تلك بالضبط كل حياة الحيوان ... ان اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان ان يمضي الليل يحلم ... بدلا من مطاردة الفريسة هذا اليوم يكون اخر عهده بالحيوانية . الحلم هو العالم العلوي الذي لا يدخله حيوان . الخيال هو تاج السيادة والسمو الذي تميز به الانسان ».

وكما ان المأساة ما كانت لتقع في التراجيديات

الاغريقية ، لو صـــدق ابطالها من البداية نبوءات العرافين ، كذلك فان « قدر محسن » ان يتجاهل نبوءة ايفان ، والا فلن تكون هناك ماساة »(٤١) .

ويسهم منهج الكاتب وطريقته في التعبير في رســـم ملامـــح ســــوزي ؛ فكــل شيء فــي الرواية يبدو من خلال عيني محسن ومن وجهة نظره ، ما عدا مطلع الفصل الخامس ، حيث يلجا الحكيم الى الســرد الموضوعي لتصوير سوزي ، ذلك ان هذه الطريقة تتسق مع فلسفة الحكيم ونظرته الى المراة(٤٢) التي ترى فيها شيئا « مثل القمــر ... اقصد بمعناه الفلكي لا الشعري ، فهي لا تشع ضوءا من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الاتــي اليها من شمــس عقل الرجل ، هي كالقمــر كائن سلبي ، وسطح معتم في ذاتــــه ، لا يسطع الا بما ينعكس على قلبهـــا وراسها من تفكير الرجــل واحســاسه »(٤٣) .

ان هذه النظرة الرجمية للمراة ، تنســحب

٤١- جورج طرابيشي : لعبة الحلم والواقع ، دراسة في ادب توفيق الحكيم ، دار الطليعة - بيروت ١٩٧٢ ص ٤٢
٤٢- نفســـه ص ٤١ .
توفيق الحكيم ، دار الطليعة - بيروت ١٩٧٢ ص ٤٢ .
٤٣- توفيق الحكيم - حماري قال لي ، مكتبة الاداب -القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٦ .

ايضا في رواية الحكيم على الحضارة الاوربية وعلى كل منجزاتها ؛ وبشقيها الراسمالي والاشتراكي . فهو يستمع الى والد اندريه يصف الوحشية التي يتصف بها نظام العمل الراسمالي قائلا « يالها من وحشية ... ان هذا لم يعد يسمى عملا ؛ انما هو الاسترقاق ... الرق لم يذهب من الوجود ... لقد اتخذ شكلا اخر يناسب القرن العشرين ... ها هي ذي جيوش من العبيد يسخرها افراد معدودون من السادة الراسمالين ص٤٠ » فالكاتب يدين الراسماليين لا الراسمالية ؛ ثم يبرر هذه العبودية على لسان محسن الذي نسمع صوته يهمس « نعم ؛ لن يذهب الرق من الوجود ... لكل عصر رقه وعبيده .... ص٤٥ » .

ومثلما ياتي الرد على تبريرات محسن وهو مقدم على هجر مملكة الخيال على لسان المتصوف الروسي الهارب من الاشتراكية ؛ ياتي الهجاء اللاذع لانجازات الحضارة الاوربية على لسان ايفان نفسه ؛ الذي يرفع شعار الهرب الى الشرق/« ان العلم علمان ؛ العلم الظاهر والعلم الخفي ؛ وان اوربا حتى اليوم طفلة ؛ تعبث تحت ذلك العلم الخفي الذي كانت حضارات افريقيا واسيا قد وصلت به حقيقة الى قمم المعرفة البشرية . ص١٠٢ » .

بل ان القاص ليدين انبل ما في الحضارة

الاوربية من انجازات ديمقراطية عظيمة ، بما في ذلك ديمقراطية التعليم « ثم جاء بعد ذلك التعليم الاشتراكي للجميع فنتج عنه جمهور هائل من القراء ، ونشط لهذا الجمهور اصحاب الاعمال فانشاوا صناعة جديدة هي صناعة (مادة القراءة) هذه المادة ، لم تكن ولا يمكن ان تكون مطلقا غير بضاعة من النوع الرديء جدا ... فالاوربيون قد اتخذوا عادة القراءة طوال الوقت وتلك رذيلة كعادة تدخين السجاير ، بل ربما كتدخين الافيون فان اوربا اليوم تتغذى بادب من الطبقة العاشرة ... ان فكرة التعليم العامة للقراءة والكتابة كغيرها من الافكار الاوربية الخاطئة التي روجتها اوربا ... قد انقلبت اسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية، فالدهماء ، التي تعلمت تلك الرموز السخيفة ماذا اكتسبت ؟ لقد حشيت ادمغتها بسخف وقاذورات ص١٨٨-١٩٠ » .

وهكذا نسي ايفان ما للحضارات الاسيوية من طابع عبودي استبدادي ليهاجم ديمقراطية التعليم التي اباحت الثقافة لاوسع الجماهير في عصرنا ، ويعتبر ذلك سببا في انحطاط الادب والفكر وتدهورهما ، وفي الوقت الذي يدين فيه الصناعة الكبرى ويعتبرها مسؤولة « مصيبة المدنية الاوربية نزلت منذ استقرار الصناعة

الكبرى . هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الاوربي الى شطرين : فئة قليلة كل همها جمع المال وفئة كبيرة كل همها ان تقدم هذا المال في مقابل لقمة . ص١٨٦ » يتهم في نفس الوقت اوربا بانها خنقت حرية الرأي واعدمت علماءها متجاهلا ان اوربا التي اعدمت علماءها هي اوربا القروسطية القديمة ، التي يتحسر عليها ايفان ويتالم لاندثارها « ومن هذا المنظور لم تكن محاكم التفتيش اوربية الا من حيث الانتماء الجغرافي . اما من حيث الانتماء الايديولوجي والحضاري فقد كانت محاكم التفتيش من آخر قلاع الاستبداد الاسيوي في غرب اوربا ؛ ولكن المقعدين المخصيين من مثقفي الشرق المسحوقين تحت وطأة الاحساس بالدونية المتخبطين في مستنقع القصور الفكري ... يخلطون عن عمد بين الاوربيتين(٤٤) » .

لقد قلنا ان الحكيم يدين الراسماليين لا الراسمالية ؛ اما الصراع الطبقي الذي نجم عن الصناعة الكبرى في اوربا ، فهو لا يرى ان سببه هو النظام الراسمالي نفسه ، بل هو من صنع ماركس . « ... ولكن الغرب اراد هو ايضا ان يكون له انبياؤه . الذين يعالجون المشكلة على ضوء

٤٤ـ انظر المرجع نفسه ص٤١ .

جديد ، وكان هذا الضوء منبثقا هـذه المرة من باطن الارض لا آتيا من اعالي السماء ... هو ضوء العلم الحديث فجاء نبينا (كارل ماركس) ومعه انجيله الارضي (راس المال) واراد ان يحقق العدل على هذه الارض نقسم الارض وحدها بين الناس ونـبي السماء فماذا حدث ؟ ... حدث ان امسك الناس بعضهم برقاب بعض ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتا على هذه الارض ص٨٨ » .

اما قيام دولة العمال وزوال الراسمالية فهو حلم مخيف ومرعب في نظر ايفان ؛ ذلك القناع الذي وضعه الحكيم على وجهه ليعبر من خلالـه عن رايه « ان انجيل هـذا الدين : كتاب راس المال » تجد ايضا في بعض صفحاته تنبؤات مخيفة، كتنبؤات (يوحنا) في رؤياه . ففيه توعد بانهيار هذا العالم وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم! ... اي أجسام تسير بغير رؤوس فوق المناكب ؟! ... يا له من حلم مخيف . ص٨٩ » .

ان آراء الحكيم التي وضعها عل ىلسان العامل الروسي المتصوف ؛ الهارب من الثورة الاشتراكية ، والذي وصف الحكيم تشرده وبؤسه في عاصمة دولة راسمالية بصدق ؛ هذه الاراء ليست مفرقة في الرجعية والسلفية فحسب ، بل

ويمكن اعتبارها خيانة وتضليلا قوميا ؛ ذلك ان الهجوم على الصناعة الكبرى والدعوة الى بقاء العالم العربي متخلفا في بنيته الاقتصادية ؛ هي دعوة امبريالية المصدر والمنبع .

ان تنكر الحكيم للواقع والحقيقة ؛ وتصوير هذا الواقع بعيدا عن كليته وشموله وجدليته ؛ وبعيدا عن الصدق والنزاهة التي يتحلى بها الفنانون العظام ــ ايا كانت افكارهم ــ قد ادى الى انهيار الشكل الفني في الرواية ؛ فرواية الحكيم رواية ذهنية وشخصياتها غير مستنبطة من الواقع ؛ وهي متفردة وغير نمطية وغير قابلة للاقناع السيكولوجي ؛ وحادثة الحب التي تصوغ الرواية منها مادتها الاساسية حادثة متفردة غير قابلة للتعميم ؛ وهي من الزيف والافتعال بحيث احاطها الكاتب بكثير من الاستشهادات والرسائل والمقتبسات والاشعار وكان ذلك كله بمثابة عكازين لا تقف الرواية على قدميها بدونهما « فهذه الاشعار وتلك المأثورات الفنية المقتبسة هي ثمار تجارب الاخرين مع الحب ؛ ومهما التقت تجارب الحب في الكثير فانها تختلف في الاكثر والاهم ؛ لان الحب تجربة ذاتية موغلة في التفرد خاصة اذا كان حبا رومانسيا ... ولكنها في عصفور من الشرق ظلال باهتة من تجارب هذه

الكثرة الوافرة من اصدقاء الكاتب بين جدران مكتبته . انها قصة الحب المجفف في الكتب وليست قصة الحياة الدافقة بكل ما هو جديد »(٤٥) .

اما ايفان الروسي هذا المتصوف النخبوي الشرس الذي يموت وعيناه مصلوبتان على شمس الشرق ، فقد صوره الحكيم بصدق بائسا مشردا في أحياء باريس ، الا انه انطقه بآرائه هو(٤٦) . ان هذا الايفان لا وجود له في عالم الروائي الناضج ، الذي يحرص على تصوير الواقع بامانة ونزاهة تامتين وبكل شموليته وجدليته .

٤٥- غالي شكري : ثورة المعتزل ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

٤٦- انظر المرجع نفسه

قنديل ام هاشم ـ ١٩٤٣ ·

تلتقي قنديل ام هاشم ليحيى حقي ـ التي صدرت بعد صدور عصفور من الشرق بخمس سنوات ـ تلتقي مع هذه الاخيرة في بعض جوانبها. واسماعيل بطل قنديل ام هاشم يعود الى مصر بعد سبع سنوات قضاها في دراسة الطب في اوربا. وكان قبل ان يغادر بلده لا يشعر بمصر الا شعورا مبهما غير واضح ؛ لكنه يعود وقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه الى بلده مصر . وكان الدكتور اسماعيل قد ارتبط قبل سفره بخطبة قريبته القروية فاطمة . وفي انكلترا نسي بطلنا فتاته واحب الفتاة الانكليزية ماري وذاق معها ضروب اللذات ؛ ثم عاد الى بلده ـ بعد ان تغير كليا بعد احتكاكه بالحضارة الاوربية ـ ليرى الى امه وهي تقطر زيتا من قنديل ام هاشم (السيدة زينب) في عيني فاطمة اللتين اصابهما المرض ، فيحس بامتهان لكرامته ، ويهجم على امه ويحطم الزجاجة . ثم يذهب بعد ذلك الى ضريح السيدة زينب ليحطم القنديل ، فيكاد يؤدي

حياته ثمنا لذلك ، لولا ان ينقذه بعض معارفه من الايدي المنهالة عليه بالضرب .

ويعكف الدكتور اسماعيل على علاج عيني فاطمة مستخدما معارفه التي حصل عليها من اوربا ، لكن مرضهما يزداد ويشتد يوما بعد يوم ، مما جعله يدرك بعد طول تامل ان (لا علم بدون ايمان) . ثم راح يشيد عمارته المتواضعة بحي البغالة وينادي الجميع ان تعالوا « فيكم من آذاني وكذب علي وغشني ، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فانتم مني وانا منكم ، انا ابن هذا الميدان ، لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد كان اعزازي لكم اقوى واشد . وعاد من جديد الى عمله وطبه يسنده الايمان وتزوج من فاطمة » بعد ان شفيت عيناها بزيت قنديل ام هاشم .

وتختلف رواية حقي عن رواية الحكيم ، في ان الاولى تقر التغيير وتتقبله ، ولكنها تحرص في نفس الوقت عل ىان لا يكون هذا التغيير اداة لتمزيق « نسيج الحياة الاجتماعية ولا يحطم

العلاقات الانسانية ، ولا يحول الناس الى آلات بغير ميراث من المعتقدات والمثل »(٤٧) .

ورغم ان شعار (العلم والايمان) هو الشعار الذي رفعته البرجوازية المصرية بعد تكوصها وارتدادها عن ثورة ١٩٥٢ القومية ، فانه يجب ان ناخذ بنظر الاعتبار المرحلة التاريخية التي صدرت فيها الرواية ؛ بغية ان نصل الى فهم أفضل لمدلول هذا الشعار .

ان رواية حقي تكرس نفسها لهذه الفكرة ، دون ان تصحبها دعوة قروسطية للعودة والنكوص الى الوراء كما هو الامر في رواية الحكيم ، وفي راينا تتضمن قنديل ام هاشم دعوة الى التاصيل تفتقر اليها رواية الحكيم ؛ كما تنطوي على فهم جدلي واع لطبيعة العلاقة بين الشرق العربي والحضارة الاوربية ، وللكيفية التي يجب ان تكون عليها مثل هذه العلاقة ؛ ذلك ان نقل منجزات الحضارة الاوربية الى مجتمعنا نقلا حرفيا يؤدي الى تشويه الحياة العقلية والنفسية لانسان هذا المجتمع .

واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار المرحلة التاريخية

٤٧ـ د. شكري محمد عياد : نفسه ص ٢٧ .

التي صدرت فيها قنديل ام هاشم ادركنا الفرق بين الفنان الاصيل فيها وبين الموقف الذي لا يتسم بالاصالة الفنية في عصفور من الشرق ، الموقف المغرق في رجعيته الذي يرتقي الى مصاف الخيانة القومية . فالمرحلة التي كتبت فيها قنديل ام هاشم شهدت صراعا عنيفا في اوربا بين مفهوم الفن للفن والفن للمجتمع ، مما يدفعنا الى تاييد الراي القائل بان « يحيى حقي التزم الجانب التقدمي في هذه المركة التي دارت رحاها علانية في اوربا ومتخفية او متنكرة في الشرق العربي[48] » بان التزم بمفهوم (العلم للمجتمع) ، رغم ان حقي قد ارتكب في راينا ، خطا فنيا في استخدامه قنديل ام هاشم رمزا لفكرته .

وشخصية اسماعيل في قنديل ام هاشم تختلف عن شخصية محسن في عصفور من الشرق فهي اي الاولى - شخصية مستديرة تبدأ محدودة قبل سفرها الى انكلترا وتعود الى مصر وقد اكتسبت خبرة وتطورت كثيرا وخرجت عن محدوديتها . وهي شخصية نابضة بالحياة ، وليست شخصية مجردة مصنوعة من (الكتب) كما هو الامر في محسن بطل الحكيم .

48)- غالي شكري : نفسه ص ٢١٨ .

وتجدر الاشـارة الى انه لا يمكن اطلاق مصـطلح الرواية على قنديل أم هاشم الا بكثير من التجوز، فهي اقرب الى نمط القصـة القصـيرة الطويلة منها الى الرواية .

الحي اللاتيني ـ ١٩٥٤

في الفترة الواقعة بين صدور عصفور من الشرق وصدور رواية الحي اللاتيني لسهيل ادريس ، تطورت العلاقات بين العالم العربي وبين اوربا الى حد بعيد ، فقد انحسر الاستعمار والانتداب عن اجزاء كثيرة من الوطن العربي . ولذا فقد اعتبرت الرواية وقت صدورها النموذج في طرحها لمشكلة اللقاء بين الشرق والغرب .

وعلى الرغم من ان كلا من روايتي الحكيم وادريس تشتركان « في كونهما ضربا من السيرة الذاتية التي يصعب فيها التميز بين ضمير البطل وضمير المؤلف ، وعلى الرغم من ان رواية سهيل ادريس تضارع رواية توفيق الحكيم في النزوع الى مركزية الذات ، بل على الرغم من مركزية الذات تلبس طابعا نرجسيا صارخا ، فان بطل هذه الرواية يمثل نمطا شبه عام للمثقف الشرقي المغترب بينما لا يمثل بطل رواية الحكيم سوى نفسه »(٤٩) .

٤٩ـ جورج طرابيشي : نفسه ص ٧٢ ونجيب سرور مجلة الاداب فبراير سنة ١٩٥٥ .

هذا فضلا عن ان رواية ادريس قدمت اكثر من نمط للشرقي المغترب في اوربا كما قدمت اكثر من نمط للفتاة الاوربية ؛ على حين لم تقدم رواية الحكيم سوى نمط شديد التفرد للشرقي المغترب هو (محسن) ونمط واحد للفتاة الاوربية هو نمط (سوزي ديبون) . وبطل الحي اللاتيني يغادر بيروت الى باريس لغرض الدراسة والتحصيل العلمي ظاهريا ؛ اما الدافع الحقيقي والاصيل للسفر فهو البحث عن المراة « تبحث عنها .. عن المراة ... تلك هي الحقيقة التي تنساها ؛ بل تتجاهلها . لقد اتيت الى باريس من اجلها ص٢٦ » فهو لم يعرف في بلده من المراة سوى نمط واحد ؛ هو نمط المومس « اجل شرقك ذلك يغرك بالهرب منه سوى اختفاء المراة الشرقية في حياتك ؛ الا ان تطل في بسمة لا تزيد الحرمان الا حرمانا ؛ او ان تشعرك بوجودها بلمسة تائهة خائفة بعيدة ؛ تملأ ذاتك بمئة عقدة؛ وتميت فيك ثقتك برجولتك او ان تسعى انت اليها حيث تشعر تارة بالغربة الروحية مع امراة لا تعطيك الا حبا فيه برودة الثلج وطورا بالاشمئزاز والغثيان .... عرفت المراة في شرقك ؛ فعرفت الخوف والحرمان والكبت والشذوذ والخيال المريض ص٢٩ » .

ولهذا فان اللحظة التي يرتسم بها ذلك المشهد الغرامي ، امامه وامام صديقه صبحي ، مقابل الفندق يحدث في نفسه هزة عميقة «شبحان معتنقان ، يتحركان بين لحظة ولحظة فينفصلان ثم يلتصقان ص١٧ » . ويمتنع النوم تلك الليلة عن عينيه ، ذلك ان هذا المشهد قد جاوز كل حدود احلام بطلنا الذي عاش في مجتمع طهري متزمت الى ابعد الحدود . وعلى حين تتميز عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم بحضور واضح لكل معالم باريس الثقافية ، تختفي في رواية ادريس وراء الهم الرئيسي للبطل الا وهو المراة ، بل ان المظاهر الثقافية ليست سوى وسائل لدى البطل للوصول الى المراة ، فالرغبة التي تدفعه الى الذهاب للسينما لاول مرة منذ وصولي باريس ، ليست الرغبة في مشاهدة فيلم سينمائي بدوافع ثقافية وانما هي محاولة للتصعيد والتسامي بعواطفه نحو المراة « ان السينما ستنسيه طوال ساعات هذه الخيبة ... وستميت هذه الشياطين التي تطل من جميع منافذ نفسه تبحث وتشتم وتسعى : اين المراة واين رائحتها المحببة ؟ ص٢٩ » وهو

حين يشاهد فتاة تقرأ في اللكسمبورغ ويلاحقها فلا يدركها ، يلمس خيبته هذه ، في ان يتطلع الى الكتب القديمة في المكتبات التي اقيمت على حواجز نهر السين « عاد الى الفندق وذراعاه محملتان بكتب قديمة رخيصة ، كان يشدها الى صدره فيشعر لها دفئا وحرارة ص ٤٨ » .

ويخوض بطل الحي اللاتيني تجارب فاشلة عدة حتى يصل الى المراة ، وكانت اولى هذه المحاولات محاولة رومانسية كاريكاتورية اذ امتدت يده لتلامس يد الفتاة التي تجلس الى جانبه في السينما ، يدس في يدها ورقة ضرب لها فيها موعدا امام السينما مساء اليوم التالي ، وفي مساء اليوم التالي ينتظر عبثا حضور الفتاة التي لم نر وجهه بسبب ظلام السينما فيعود ذليلا حانقا ، وقد كشف غياب المراة عن جوهر نظرته الشرقية الاقطاعية الى المراة « وهل هن جديرات بالاحترام كل اولئك الفتيات الفرنسيات اللواتي يسقن هذه الحياة العابثة الفارغة ؟ الا ينبغي لكل شاب يلتقي باحداهن ان ينزع منها ثقته منذ اللحظة الاولى ،

لانها سوف تخدعه حين يغيبها في المنعطف ؟ ان قصارى ما ينبغي له ان يفعل هو ان ياخذها بين يديه ، فيعصرها ويعصرها ويمتص كل حلاوتها ثم يلفظها كما تلفظ النواة ص٤٢ » .

ويقوم البطل بعملية تعويض وانتقام لنفسه حين يقود فتاة رصيف الى غرفته بالفندق ليكتشف فيما بعد انه لم ينتقم سوى من نفسه « وحين هما بالافتراق بعد منتصف الليل قالت له بمرح : ـ اشهد انك لطيف جدا ، ولكني اعجب لشيء واحد : لماذا لم تنظر الي طوال هذه المدة ؟ ... الا يعجبك جمالي ؟

وتذكر في تلك اللحظة انه كان يتفادى حقا من النظر اليها طوال مكوثه معها ، بالرغم مما لمحه من جمال وجهها وجاذبيته ... ورفع عينيه الى عينيها وسرعان ما ادرك لماذا كان يتفادى من النظر اليها : كان في عينيها بسمة ، بسمة سمع صوتها باذنيه ، بسمة كانت تقول « حقا يا صاحبي ما اشد ما تستحق الشفقة والرثاء . ص٤٤ » .

ويظل البحث عن المراة ، وعن حضورها الانساني العميق ، هما رئيسا لدى البطل وحين يلتقي بليليان ـ وقد اورثها له صديقه الشرقي سامي قبيل مغادرته باريس ـ ظن انه قد حصل

على بغيته ، لكنه يحبط من جديد حين يكتشف ان ليليان هذه لم تكن سوى لصة محترفة سرقت (بعد ان نامت معه) حافظة نقوده ومضت ، بعد ان خدعته بان قرات عليه قصيدة لجاك بريفير زاعمة انها من شعرها هي . فكان الاحباط هذه المرة مزدوجا ، احباط حلم الحصول على المراة ، والاحباط الثقافي .

ولم تكن التجربة الرابعة في حياة بطلنا باقل احباطا ، فمارغريت التي التقاها في باحة الفندق وقادها بسهولة الى غرفته ، لم تكن بائعة هوى وانما طالبة لذة ، لم يفلح بطلنا الشرقي المتخلف في ان يمنحها اياها ، واكتفى بان يحقق لذته هو « ولكن ما بالها ... تسارع بالنهوض ثائرة الاعصاب متقلصة القسمات ... لا تنم الا عن غضب مكبوت وحنق تحاول جهدها ان تكظمه ؟ واذا اقترب منها ممتلئا عجبا نفرت تقول :

ـ ابتعد عني ... كلكم هكذا انتم الرجال ... انانية قذرة .

وارتدت ثيابها على عجل ثم فتحت باب غرفته ، وخلفته في عجب يكاد يتحول الى بلاهة ص٧٥ » .

لكن البطل سيتاح له ان يكتشف ذاته ، من خلال علاقته بجانين مونترو ، ومن خلال رابطة الطلبة التي عمل فيها ، وبشكل خاص من خلال علاقته بالشاب القومي المتحمس لعروبته : فؤاد .

وجانين هذه فتاة قدمت من الالزاس الى باريس لتدرس الصحافة وتعمل في نفس الوقت لتعيل نفسها ، بعد ان رفضت الاقتران بخطيبها هنري الذي راته يخونها قبل موعد الزواج باسبوع واحد رغم انها كانت قد استسلمت له في « لحظة ضعف » . فقد هجرته بشجاعة نادرة ، وبعد تردد طويل قامت بينها وبين بطلنا علاقة حب وطيدة اشبعت لديه الدوافع الروحية والجسدية «الحب هذا الحب الذي لم يعرف منه الا احد شطريه ، فاما النشوة الروحية وحدها واما اللذة الجسدية وحدها ، بل هو لم يعرف اي الشطرين الا في اسوء اشكاله : اما كبت وانغلاق وتآكل ، واما انانية وحيوانية وانحطاط ولم يكن يتصور ان بوسع انسان ان يدرك الى جانب انثى اللذتين كلتيهما ، كما ادركها هو الى جانب جانين ص١٥١ » .

على ان الموقف النقدي الذي يقفه بطل الحي اللاتيني من التقاليد الشرقية والمراة الشرقية ، وما يحتوي عليه هذا الموقف من ايدولوجية تقدمية

ظاهريا لا تصمد على محك الايدولوجيا المتخلفة الباطنة الخفية الراسخة الجذور في الوجدان الجمعي لبطلنا ، التي سرعان ما تعاود ظهورها على السطح في كل مرة يسلس فيها قياد نفسه لرد الفعل لا للمحاكمة العقلية الواعية ، فهو ما ان يعود الى بيروت في سفرة قصيرة حتى يقع فريسة صراع حاد بين حبه لجانين واعجابه بها من جهة وتقاليد مجتمعه ممثلة بالوصايا التي تصبها امه في ذهنه ناصحة اياه بعدم الزواج من فتاة اوربية . واذا بصاحبنا يفلسف علاقته بجانين بطريقة شرقية طهرية ، فهي صورة للنبل ولكنها ملوثة بخطيئة اصلية لا غفران لها ، فهي لم تكن بكرا حين عرفها ، بل سبق وان استسلمت لخطيبها هنري في لحظة ضعف « أتنسى انت الماضي ؟ لقد كانت مخطوبة حين عرفتها ، ثم ماذا ؟ انها غادرت قريتها شبه مطرودة . ليس من الخطأ ان يقال انها فتاة ، عفوا ، امرأة لا اهل لها . وكيف تراها تكسب عيشها . تعمل في مخزن .. اية سبة ؟... اية فضيحة واي عار سينصب على بيتنا ، بيتنا الذي عاش طويلا في الستر والشرف والدين ص٢٣٢ » . وفي هذه الكلمات يكمن الشرق الابوي السلفي الرجعي المتخلف كله ، كما يقول جورج طرابيشي .

ومثلما يرفض « التقدمــــي الكبير » فؤاد ـ الذي يعتبره البطل مثله الاعلى في النضال من اجل القضايا القوميـــة ـ الزواج من فرانسواز بحجة ان المراة الشرقية هي القادرة وحدها على ممارسة النضال القومي ، يرفض بطلنا الزواج من جانين التي احبها واحبته بصدق ويبلغ البطل اوج تخلفه وشرقيته حين تصله رسالة من جانين وهي بالمستشفى ، تخبـــره فيها بانها حامـــل منه وتستشيره في امر ثمرة حبهما المشترك ، اتـقتله ام تبقيه ؟ فيتبرا من ثمرة حبه بنذالة لا مثيل لها لكي لا يلزم نفســه بالزواج منها ، رغم ان جــانين لم تكن تحمله في رسالتها اية مــسؤولية قانونية ، بل كتبت له باعتبار ان من حقهما كليهما ان يقررا مما مصير ثمرة حبهما المشترك ، وليس من حقها ان تنفرد باتخاذ هذا القرار .

ان جانين الفتاة التي تحملت المسؤوليــة وواجهت مصيرها بشجاعة نادرة ؛ تسقط في نهاية الرواية . ولقد اشار اكثر من ناقد الى ان ثمة خللاً في بناء شـــخصية جانـــين(٥٠) ؛ فهي تخرج بفعل (مصادفة غريبة) من المستشفى قبل يوم واحــد من عودة البطل من بيروت ويبحث عنها فلا يجدها

٥٠ـ نجيب سرور ، الحي اللاتيني ـ مجلة الاداب ، فبراير ١٩٥٥ .

فتسقط بفعل الجوع والحاجة وتضيع في كهوف سان جرمان . وكان البطل قد عاد بعد ان وصلته رسالة من فؤاد يحمله فيها مسؤولية عمله . وهذا (ما لا ينتظره الوطن العربي من العربي الشريف ص٢٤٤) .

ان القسم الثالث من الرواية الذي يشهد سقوط جانين ، يفتقر الى الصدق الفني واعترافات جانين في هذا القسم ، اعترافات مصنوعة وغير صادرة عن تجربة معاشة . وهي لا يمكن ان توجد في عالم روائي ناضج ومكتمل فنيا . ان افتقار هذا القسم من الرواية الى الصدق والتجربة الحية المعاشة يرجع الى ان المنطق المتحكم في سيرورته « هو منطق مشروع الانتقام ، لا المنطق الفني ، ولا منطق البناء النفسي لجانين من حيث انها شخصية روائية . ان جانين تسقط لانه كان يجب ان تسقط ، وهذا الوجوب خارجي ، ولا ينبع من ضرورة داخلية ، اي لا ينبع من حرية جانين من حيث انها شخصية روائية وانما من جبرية المخطط المسبق مخطط الانتقام الكبير(٥١) .

٥١ـ جورج طرابيشي نفسه : ص ١٠٢ .

ويضع الناقد جورج طرابيشي يده على حقيقة ان الاحداث تنعطف في القسم الثالث من الرواية بعد ان كانت واقعية ، فجانين شخصية واقعية وعلاقة الحب بينها وبين البطل تتم على صعيد الواقع لكن جانين تستحيل في نهاية الرواية وبالذات في الصفحة الاخيرة الى رمز لاوربا التي يافل نجمها في حين يصبح البطل رمزا للمشرق العربي الذي يستيقظ ، تقول جانين : « انك الان تبدأ النضال اما انا فقد فرغت منه ، ومات حس النضال في نفسي ، لقد عجزت عن ان اقاوم اطول مما قاومت فسقطت ضعيفة مهيضة الجناح ، اما انت فقد قرات امس في عينيك استعددا طويلا ، طويلا جدا للمقاومة والصراع ، وقد قرات مثل ذلك في عيني صديقك العزيز فؤاد ... انك انسان جديد يعرف الذي يريده ويسعى اليه بثقة وايمان . لا يا حبيبي لسنا على صعيد واحد ، لقد وجدت انت نفسك بينما اضعت انا نفسي ... فدعني هنا اتابع طريقي ، وعد انت يا حبيبي العربي الى شرقك البعيد الذي ينتظرك ويحتاج الى شبابك ونضالك جانين ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ » . وهكذا فان رواية الحي اللاتيني رغم ما تتميز به عن رواية توفيق الحكيم من وعي للحضارة الاوربية ولمشكلة الاستعمار والتخلف ولضرورة النضال القومي

ضدهما ، فانها تبطن ايدولوجية عمادها نظريـــة العود الابدي ؛ التي تجعل من التاريخ دورا متعاقبا من الثار والثار المضاد ، وتـرى تبعا لذلك ، ان يقظة الشرق لا تتم دون أفول الغرب(٥٢) .

٥٢ـ نفسه ص ١١٠ .

موسم الهجرة الى الشمال

تمتاز رواية موسم الهجرة الى الشمال عن غيرها من الروايات التي ناقشت مشكلة اللقاء بين الشرق والحضارة الاوربية ، بانها تصور الآثار المادية والروحية الناجمة عن هذا اللقاء لدى جيلين مختلفين ، الجيل الاول الذي فتح عينيه على هذه الحضارة ، تدخل بلده مع رشاشات كتشنر الذي دارت بينه وبين المهديين في الثاني من ايلول عام ١٨٩٨ معركة شاملة عند عاصمة الدولة المهدية ام درمان ، سقط فيها من المهديين المسلحين بالسهام والخناجر والبنادق القديمة ما يزيد على عشرين الفا ودحروا فيها اندحارا ماحقا رغم ما ابدوه من شجاعة وبسالة امام قوات كتشنر الغازية .

ما الجيل التالي ، الذي استطاع ان يتقبل الحضارة الاوربية تدريجيا دونما عقد او مركبات نقص ، وان يوائم بين منجزات هذه الحضارة وبين الخصائص الذاتية والتاريخية للمجتمع

العربي في السـودان فيتمثل في شخصية الراوي(٥٢) الذي يقول بهذا المعنى « انني ابتدي،من حيث انتهى مصطفى سعيد ص١٢٥ » .

لقـد ولد مصـطفى سعيد في ظل الاحتلال الانكليـزي للسودان ، وتعلم في اولى المدارس التي افتتحها المستعمرون « ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم ص٩٨ » وقد ولد ونشأ دون ان يرى اباه ولم تكن ثمة عاطفة تربطه بامـه ، كان يعاني من حال انفصام نفساني واحساس بالحرية واللاانتماء ولذا فقد كن منذ طفولته مشدودا الى نداء الرحلة والمغامرة ، وفضلا من ذلك كان سعيد عقلا خالصا بلا عاطفة « كنت أحس أنني ... انني مختلف ، أقصد لست كبقية الاطفال في سني ، لا اتاثر بشيء، لا ابكي اذا ضربت ، لا افرح اذا اثنى عليّ المدرس في الفصل لا اتالم لما يتالم له الباقون ، كنت مثل شيء مكور من المطاط تلقيه في الماء فلا يبتل ص٢٤» وتشكل هذه الحالة السيكولوجية المتفردة لسعيد أحد العوامل الرئيسة في صياغة ماساته .

وفي المدرسة الانكليزية نبغ مصطفى سعيد، وتعلم الانكليزية بسرعة لا تصدق وكان عقله مثل مدية حادة لا يقف أمامها اي لغز ، حتى اذا اكمل

٥٢ـ جورج سالم : مغامرة الرواية العربية ـ مطابع الف باء ـ الاديب ـ دمشق ١٩٧٣ ص ١٧١ .

دراسته الابتدائية في السودان ؛ حصل على منحة دراسية لاكمال دراسته الثانوية في القاهرة . ويروي مصطفى سعيد كيف كانت لحظة وداعه لامه فيجسد بذلك حالة الفصام النفسية التي لازمته منذ الطفولة « ذهبت الى أمي ، وجدتها . نظرت الي مرة اخرى ، تلك النظرة الغريبة افترت شفتاها لحظة ، كانها تريد ان تبتسم ، ثم اطبقتهما وعاد وجهها قناعا كثيفا ، بل مجموعة اقنعة ؛ ثم غابت قليلا ، وجاءت بصرة وضعتها في يدي ... كان ذا لكوداعنا ، لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء ، مخلوقان سارا شطرا من الطريق ثم سلك كل منهما سبيله » .

ومصطفى لا يحزن حين يصله نبأ وفاتها وهو سكران في احضان امرأة ــ وموقفه هذا يذكرنا بموقف ميرسول بطل رواية الغريب لكامو ــ وسوف لن يتذكر مصطفى امه الا حين يصبح عند قمة المأساة فيبكي بكاء حارا « وكان ذلك اخر ما قالته لي ، فانني لم ارها بعد ذلك في الواقع ؛ بعد سنوات طويلة وتجارب عدة تذكرت تلك اللحظة فبكيت ص٢٧ »

وفي القاهرة واصل مصطفى تفوقه العقلي ولكن وضعه السيكولوجي لم يتغير ولم يكن موقفه

من مسز روبنسن التي احتضنته هي وزوجها في القاهرة افضل من موقفه من امه ، وكان صدرها هو ملاذ سعيد عندما صدر عليه الحكم بالسجن بعد جريمة قتل زوجته « كنت في الخامسة عشرة، يظنني من يراني في العشرين ، متماسكا على نفسي كأنني قربة منفوخة ورائي قصة نجاح فذ في المدرسة ـ كل سلاحي هذه المدية الحادة في جمجمتي وفي صدري احساس بارد جامد ص٣٠» وفي القاهرة احبته فتاة ثم كرهته قائلة : « انت لست انسانا انت آلة صماء ص٣٢ » وكانت مسز روبنسن تقول له : « أنت يا مستر سعيد خال من المرح تماما صحيح انني لم اكن اضحك وتضحك مسز روبنسن وتقول لي « الا تستطيع ان تنسى عقلك ابدا ؟ ص٢٩ » .

وفي لندن التي ارتحل اليها مصطفى سعيد لاكمال تحصيله العلمي ، بعد انتهاء دراسته في القاهرة تكتمل ماساته ، اذ تنتحر ثلاث فتيات بسببه ، ويقتل زوجته جين مورس ، فلقد عبرت ازمته عن نفسها في سعي محموم ولاهث وراء المراة الاوربية « اقرا الشعر واتحدث في الدين والفلسفة وانقد الرسم واقول كلاما عن روحانيات الشرق . افعل كل شيء ، حتى ادخل المراة في فراشي ثم

اسير الى صيد آخر . لم يكن في نفسي قطرة من المرح . »

ورغم ما يصرح به مصطفى سعيد من انه ليس قاتلا ، وانه انما هيج كوامن الداء حتى استفحل وقتل « غرفة نومي كانت ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتاك ، العدوى اصابتهن منذ الف عام ، لكني هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل ص٣٧ــ٣٨ » رغم ذلك ورغم ان سعيدا يلقي بتبعة المسؤولية على جرثومة العنف الاوربي التي يراها ملازمة لاوربا منذ الف عام فان مصطفى سعيد استحال سيكولوجيا الى مجرم . يقول سيجموند فرويد ـ الذي يعترف الطيب صالح بانه كان واقعا تحت تاثيره عند كتابته الرواية(٥٤) : « هناك خصيصتان ضروريتان للمجرم ، انانية لا حد لها ، ودافع قوي نحو التدمير . ومما يلازم هاتين الخصيصتين ، ويعتبر شرطا ضروريا للتعبير عنهما فقدان الحب ، اي فقدان التقدير العاطفي للاشياء البشرية(٥٥) » .

٥٤ـ الطيب صالح (هناك اسرار لم ادركها بعد) في كتاب (الطيب) صالح عبقري الرواية العربية دار العودة ـ بيروت ص ٢١٥ .

٥٥ـ رينية ويليك ـ دستويفسكي ، ترجمة نجيب المانع المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٦٧ ص ١٦٤ .

لقد توافرت كل هذه الخصائص السيكولوجية في مصطفى سعيد ؛ فبسبب هذه الانانية المسرفة، وبسبب فقدانه لعاطفة الحب العظيمة ، تنتحر آن همند التي تبحث عن الحب في غرفته وتترك له ورقة صغيرة كتب عليها « مستر سعيد لعنة الله عليك » كما تنتحر شيلا غرينود لنفس السبب وتنتحر ايضا زوجة جراح ناجح ، هي ايزبيلا سيمور التي لم تفلح غرفة مصطفى سعيد في ان تنسيها اصابتها بالسرطان ؛ ثم يتوج سعيد ماساته بجريمة قتل زوجته جين مورس ، ليتشرد بعد ذلك في اصقاع الارض من باريس الى كوبنهاغن الى دلهي الى بانكوك ، يطارده شبح جين مورس ، وهو يحاول التسويف والماطلة ؛ لينتهي به الامر بعد كل ذلك الى ان يستقر في قرية مغمورة الذكر على النيل يشتري ارضا ويزرعها ، ويتزوج من حسنة بنت محمود ، وينجب منها ولدين ويقيم علاقات اجتماعية كسائر الناس في القرية ، والسر وراء ذلك « ان الحكمة القريبة المنال تخرج من افواه البسطاء هي كل املنا بالخلاص ، الشجرة التي تنمو ببساطة وجدك عاش وسيموت ببساطة ذلك هو السر ص٤٥ » كما يقول مصطفى سعيد .

على ان الخلاص لا يتم لمصطفى سعيد ، ولابد لشعور الذنب ان يدمر المذنب فلم تكن حياة

مصطفى سعيد في القرية السودانية . سوى تمثيل ومسرحية ميلودرامية يعيد فيها الممثل ما وقع في عالم جين مورس ، واذا المأساة تتكرر بعد موت مصطفى غرقا في النهر ، اذ يتقدم ود الريس لخطبة ارملته حسنة فتمتنع وتهدد بالانتحار اذا ما تم زواجها منه ، لكن عائلتها ترغمها على الزواج من الرجل الكهل لتصحو القرية ذات فجر على صراخهما ، بعد ان قطعت حسنة ذكر ود الريس وقطع ود الريس حلمة حسنة فماتا معا .

وقمين بنا ونحن نتحدث عن شخصية مصطفى سعيد ان نتساءل عن طبيعة المادة التي صنعت منها هذه الشخصية المأساوية ، وعن الدوافع الجوهرية الصانعة لمأساته ، فما هي هذه المادة وما هي هذه الدوافع ؟ .

يشير الناقد محي‌الدين صبحي الى الشبه بين ثلاثة اعمال ادبية عالمية صدرت في ثلاثة ازمان متباعدة ، هي عطيل لشكسبير ، والغريب لكامو ، وموسم الهجرة الى الشمال للطيب صالح ، ويلاحظ الناقد « ان كل رواية تتعرض للقاء حضاري تنتهي بفاجعة تقوم على سوء التفاهم » ثم يتساءل الناقد بصدد عطيل قائلا : « الا يريد شكسبير ان يقول

بشكل غير مباشر ان الرجل الذي يعيش في حضارة غريبة عنه مقضي عليه بالهلاك(٥٦) ؟ » .

والواقع ان ثمة مؤثرات واضحة من عطيل ومسرح شكسبير ـ سواء في المحتوى الفكري او في بناء الرواية ـ ماثلة في موسم الهجرة الى الشمال ، اذ ان اسم عطيل يرد في اكثر من موضع على لسان مصطفى سعيد ، فحين تساله ايزبيلا سيمور « ما جنسك ؟ هل انت افريقي ام اسيوي؟ يجيب قائلا : « انا مثل عطيل ، عربي افريقي . ص٤٢ » . وفي المحكمة يود سعيد ان يصرخ « انا لست عطيلا ، عطيل كان اكذوبة ص٩٨ » ولعله يريد من ذلك التاكيد على ان عطيلا لم تكن ماساته قد وقعت بدافع الغيرة ، وانما بدافع لقائه وهو العربي الافريقي بحضارة فينيسيا التي عمل على راس جيشها (٥٧) .

ولكن الشبه بين مسرحية شكسبير ورواية الطيب صالح أعمق من ذلك وابعد مدى ذلك اننا

٥٦ـ محي الدين صبحي ـ عوالم من التخيل ـ دمشق ١٩٧٤ ص ٢٤ .

٥٧ـ نفسه ص ٥٥ .

لو تفحصنا مادة التراجيديا عند شكسبير لوجدناها ماثلة في موسم الهجرة الى الشمال ، فباستثناء ان شخصية شكسبير المأساوية هي ذات مركز سياسي او اجتماعي هام على حين شخصية سعيد شخصية عادية سياسيا واجتماعيا « انما انا لا اطلب المجد فمثلي لا يطلب المجد ص٤٦ » ـ نجد ان المادة التي صنع منها الطيب صالح مأساة مصطفى سعيد هي نفس المادة التي صنع منها شكسبير مآسيه ، يقول برادلي : « اما شخصياته التراجيدية فمصنوعة من المادة التي نجدها في صميم ذواتنا ، وفي صميم الاشخاص المحيطين بنا ولكنهم بواسطة التهويل من شأن الحياة التي يشاطرون غيرهم فيها ، يرفعون الى اعلى من مستواهم ، واعاظمهم يرفعون الى حد اننا لو ادركنا ادراكا تاما كل ما تنطوي عليه كلماتهم وتصرفاتهم ، لادركنا انه قلما نعرف في الحياة الحقيقية اي شخص يشبههم ... وفي جميعهم تقريبا نلاحظ ميلا محسوسا مع الهوى، واستعدادا للسير في اتجاه خاص وعجزا في بعض الظروف عن مقاومة القوة التي تسوقهم في هذا الاتجاه ، وميلا مدمرا الى الظهور بمظهر من لا يهتم الا بمصلحة

او غاية او حالة ذهنية واحدة . ويبدو ان هذا في نظر شكسبير هو الميزة التراجيدية الاساسية »(٥٨)

ان كل ذلك متحقق في شخصية مصطفى سعيد ، فهو اولا شخصية شديدة التفرد قلما نجد في الحياة الحقيقية شبيها بها ، بل ان مصطفى سعيد يخطر في باله وهو يقف في المحكمة ، يقف ويصرخ : « ومرة خطر لي في غيبوبتي ... ان اقف واصرخ في المحكمة « هذا المصطفى سعيد لا وجود له ، انه وهم ، اكذوبة ، وانني اطلب منكم ان تحكموا بقتل الاكذوبة ص٣٦ » كما ترد على لسان الراوي عبارة شبيهة « احيانا تخطر لي فجاة تلك الفكرة المزعجة ان مصطفى سعيد لم يحدث اطلاقا ، وانه فعلا اكذوبة ، او طيف او حلم او كابوس ، الم باهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خانقة ، ولما فتحوا اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه ص٥٠ » .

وثانيا ، اننا نجد في شخصية مصطفى سعيد ذلك الهوى والاستعداد للسير في اتجاه خاص وذلك الميل الى الظهور بمظهر من لا يهتم الا بحالة ذهنية واحدة ، وذلك ماثل في ما قلناه سابقا من ان

٥٨ـ آ.س. برادلي : التراجيديا الشكسبيرية : ترجمة حنا الياس ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة ص ٢١ .

مصطفى سعيد عقل خالص بلا عاطفة انسانية ، كما ان هذا الميل في اتجاه خاص دون الالتفات الى الجوانب الاخرى في الحياة ، ماثل في ذلك السعي اللاهث وراء الجنس « ثلاثون عاما ، كان شجر الصفصاف يبيض ويخضر ويصفر في الحدائق ، وطير الواقواق يغني للربيع كل عام ... ومنطقة البحيرات تزدهي عاما بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب سعيد حزين ... ثلاثون عاما وانا جزء من كل هذا ، اعيش فيه ولا احس جماله الحقيقي ولا يعنيني منه الا ما يملأ فراشي كل ليلة ص٤٠ »

وثالثا ، فان مصطفى سعيد حين ادرك انه يقترب من المأساة ، وانه مقدم على قتل جين مورس لم يستطع ان يقاوم القوة التي كانت تسوقه في هذا الاتجاه الفاجع « وما اكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها ، لماذا لا اتركها وانجو بنفسي؟ ولكنني كنت اعلم ان لا حيلة لي وان لا مفر من وقوع المأساة . وكنت اعلم انها تخونني . كان البيت كله يفوح برائحة الخيانة ص١٦٤ » .

اما عنصر الشبه الاخر بين مسرحية عطيل وموسم الهجرة الى الشمال فهو قائم في بناء الرواية فلغة السرد شديدة التكثيف ، اقرب الى لغة المسرحية منها الى لغة الرواية ، كما ان الصراع في الرواية هو اقرب الى الدراما منه الى الرواية ،

ولعل ما قاله الطيب صالح من انه لم يستطع ان يكبح جماح شخصية مصطفى سعيد(٥٩) ، دليل على ان بناء الرواية قريب الشبه بالبناء المسرحي .

لقد تظافر التكوين السيكولوجي المأساوي لشخصية مصطفى سعيد مع الرضة الحضارية التي كانت من نتائج لقاء المجتمع العربي السوداني بالحضارة الاوربية لقاء عنيفا ، لتسهم في صياغة مأساة مصطفى سعيد « البواخر التي مخرت عرض النيل اول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد انشئت اصلا لنقل الجنود وقد انشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم . انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الاوربي ... جرثومة مرض فتاك اصابهم منذ الف عام . نعم يا سادتي انني جئتكم غازيا في عقر داركم ، قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ . انا لست عطيلا. عطيل كان اكذوبة ص٩٨ » .

ان سلوك مصطفى سعيد الذي انتهى الى الجريمة ، كان ردا على هذه الحضارة التي جاءت ارضه غازية ، ولكنه رد اتسم بالالتواء والمرض الذي خلقته هذه الصدمة الحضارية « كان هو رئيسا لجمعية الكفاح لتحرير افريقيا ... كانت

٥٩ـ الطيب صالح : المرجع السابق ص ١٢٦ .

له صلات واسعة ... يا الهي ذلك الرجل كانت النساء تتساقط عليه كالذباب . وكان يقول ساحرر افريقيا ب ... ي » هكذا يصرخ احد تلامذة مصطفى سعيد . اما كيف « تجمع لديه الحقد التاريخي فالجواب غير الحاسم هو ان مصطفى سعيد كان يمتلك ذاكرة جماعية تاريخية حادة ... بل ان اللاشعور الجمعي يتضخم في نفس مصطفى حتى يطغى على شخصيته بل يجعل هذه الشخصية تتفحص ذلك اللاشعور ، وتتصرف على انها تجسيد له(٦٠) . حين كان يراود ايزبيلا سيمور المراة المتزوجة التي انتحرت قالت له :

ـ هل تدري ان امي اسبانية ؟

ـ هذا اذن يفسر كل شيء ...

ان مصطفى سعيد ما يكاد ينهي كلامه حتى يعلق « وتخيلت برهة لقاء الجنود العرب لاسبانيا مثلي في هذه اللحظة . اجلس قبالة ايزبيلا سيمور ظما جنوني تبدد في شعاب التاريخ ، انما انا لا اطلب المجد فمثلي لا يطلب المجد ص٤٦ » .

٦٠ـ محي الدين صبحي : نفسه ص ٣٩ .

ويتجلى الحقد التاريخي مرة أخرى في مسا يمارسه مصطفى سعيد من كذب وتلاعب بالحقائق وهو يحاضر عن ابي نؤاس في جمع من الانكليز ، يضم معظم من يريد مصطفى سعيد ان يثأر تاريخيا منهم « وبعد المحاضرة التفوا حولي : موظفــون عملوا في الشرق ونساء طاعنات في الســن مات ازواجهن في مصر والعراق والسودان ورجال حاربوا مع كتشنر واللنبي ومستشرقون وموظفون في وزارة المستعمرات . وموظفون في قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية ص١٤٤ » . وينتقم مصطفى سعيد من هذا الجمهور بطريقة ملتوية ايضا : « قلت لهم ان عمر الخيام لا يساوي شيئا الى جانب ابي نؤاس وقرات لهم من شعر ابي نؤاس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ... وقلت في المحاضرة ان ابا نؤاس كان متصوفا ، وانه جعل من الخمر رمزا حمله جميع اشواقه الروحية ... كلام ملفق لا اساس له من الصحة ... ورغم ادراكي بانني كنت اكذب فقد كنت احس انني بطريقة ما اعني ما اقــول .. كانت تلك لحظة من لحظات النشوة النادرة التي ابيع بها عمري كله . لحظة تتحول فيها الاكاذيب امام عينيك الى حقائق ويصير التاريخ قوادا ويتحول المهرج الى سلطان ص١٤٥ » وحين تتقدم اليه فتاة انكليزية تدعى

آن همند ـ وهي فتاة مثاثرة بالفلسفات الشرقية كانت تنوي اعتناق احدى الديانات الشرقية ولكنها انتحرت بعد ان دخلت غرفة مصطفى سعيد ـ قائلة له : « انت جميل ، تجل عن الوصف . وانا احبك حبا يجل عن الوصف . قلت لها بعاطفة اخافتني حدتها : واخيرا وجدتك يا سوسن ، انني ابحث عنك في كل مكان ، وخفت الا اجدك ابدا . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لا تقل عن عاطفتي حدة كيف انسى دارنا في الكرخ في بغداد على ضفة نهر دجلة ايام المامون ؟ انا ايضا تقفيت اثرك عبر القرون ولكني كنت واثقة اننا سنلتقي . وهاانذا ياحبيبي مصطفى . لم تتغير منذ افترقنا ... ورغم ادراكي انني اكذب كنت احس انني بطريقة ما اعني ما اقول ، وانها ايضا رغم كذبها فان ما قالته هو الحقيقة ص١٤٥ » ثم حدثت العودة الى التاريخ بشكل عملي « ركعت وقبلت قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وانا سوسن جاريتك ... لبست عباءة وعقالا وتمددت انا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقي ورقبتي وكتفي . قلت لها بصوت آمر : تعالي فاجابتني بصوت خفيض سمعا وطاعة يا مولاي ... وجدوها في شقتها في هامستد ميتة انتحارا بالغاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك ص١٤٨ » .

ان حالة الانشطار في الذات تشمل المستعمر والمستعمر معا ، ولان الوعي لم يعد يمكنه تحقيق غاياته بحرية ، فانه ينفصل عن نفسه لان الكذب قد حل فيه . فيحدث هذا الانقسام في الوعي او ما اسماه هيغل بـ « مصيبة الوعي » او ما يسمى (بفقدان البراءة البدائية) . وهكذا ينعكس ظهور الطبقات ، والاستغلال وانقسام الانسانية الى جماعات متناقضة ، في هذا الانقسام العميق للوعي الانساني « صدقت يا سيدتي الشجاعة والتفاؤل. ولكن الى ان يرث المستضعفون الارض ، وتسرح الجيوش ، ويرعى الحمل آمنا بجوار الذئب ،ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر ، الى ان ياتي زمن السعادة والحب هذا سأظل انا اعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية ص٥٤ » . ولم تكن ازمة مصطفى سعيد ومأساته لتنفصل عن نظام الاستغلال الذي قامت عليه الحضارة الاوربية الراسمالية وكان من نتائجه حربان عالميتان دفعت فيهما البشرية الكثير من الدم والدموع ، فمصطفى يتحدث عن مأساته وقتله(٦١) لجين مورس ويقرن حديثه ذلك بالحديث عن الحرب « رايت الجنود يعودون يملؤهم الذعر من حرب الخنادق والوباء،

٦١ـ انظر شجاع العاني : موسم الهجرة الى الشمال ، مجلة الكلمة ، الحلقة الخامسة ، مايس ١٩٦٩ .

رايتهم يزرعون بذور الحرب القادمة في معاهدة فرساي ، ورايت لويد جورج يضع اسس دولة الرفاهية العامة . وانقلبت المدنية الى امراة عجيبة لها رموز ونداءات غامضة ص٣٨» . ومصيبة الوعي او حالة الانقسام في الوعي هذه ، لا تقتصر على الضحية بل تشمل الجلاد والضحية معا ، فلم تكن الفتيات الثلاث اللواتي انتحرن سوى اصداء لازمة مصطفى سعيد ، وبقدر ما كان هو جنوبيا يحن الى الشمال ، كن هن شمالا يحن الى الجنوب ، وتتجلى هذه الحقيقة بصورة اوضح في جين مورس التي كانت سيكولوجيا شديدة الشبه بمصطفى ، وكان لابد ان يؤدي لقاءهما الى الجريمة .

وبسبب من انشطار الوعي لدى مصطفى سعيد ، فانه يحاول ان يثأر تاريخيا ، بطريقة تقلب فيها المعادلة ، ويتبادل الطرفان فيها مواقعهما : ان يلعب مصطفى في لندن نفس الدور الذي لعبه كتشنر في السودان « لو انني طلبت استئجار غرفة في بيت احدهم فاغلب الظن انه سيرفض ، واذا جاءت ابنة احدهم تقول له : انني سأتزوج من هذا الرجل الافريقي فيحس حتما بان العالم ينهار تحت قدميه ، ولكن كل واحد فيهم في هذه المحكمة سيسمو على نفسه لاول مرة في حياته ، وانا

احس تجاههم بنوع من التفوق فالاحتفال مقام اصلا بسببي ، وانا فوق كل شيء مستعمر . انني الدخيل الذي يجب ان يبيت بامره حين جيء لكتشنر بمحمود ود احمد ، وهو يرسف في الاغلال، بعد ان هزمه في موقعة اتبرا قال له : « لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب ؟ » الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الارض ، وصاحب الارض طاطا راسه ولم يقل شيئا ، فليكن ذلك شاني معهم . انني اسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة وقعقعة سنابك خيل اللنبي وهي تطا ارض القدس ... انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الاوربي ... جرثومة مرض فتاك اصابهم منذ الف عام ص٩٨ » .

لقد قلت ان جين مورس كانت سيكولوجيا شديدة الشبه بمصطفى ، من حيث انهما كلاهما قد تعرضا للتشويه العقلي الذي تسبب في خلقه حضارة اوربا الصناعية في عصرنا ولقد طاردها مصطفى ثلاثة اعوام دون ان يستطيع نيلها ، وذات يوم قالت له : « انني تعبت من مطاردتك لي ومن جريي امامك . تزوجني ص٣٧ » فتزوجها ولكنه لم يستطع ان ينالها حتى بعد الزواج « وتزوجتها غرفة نومي صارت ساحة حرب . فراشي كان قطعة من الجحيم امسكها فكانني امسك سحابا ص٣٧»

وظلت جين شهرين بعد الزواج لا تدع مصطفى يقربها متعللة بذرائع المرض والتعب ، ولكنها تطلب اليه ذات يوم ان يضاجعها ، وعلى مرأى من اعين الناس ، في حديقة عامة ، ولنر كيف تعبر عن حبها لمصطفى بطريقة معوجة ، وهي نفس الطريقةالموجة التي عبر بها مصطفى عن حبه لها ، فبعد انتجنبها مصطفى اسبوعين جاءت هي التي كانت تهرب منه دائما عندما كان يلاحقها ـ الى داره وكانت آن همند مع مصطفى فشتمتها شتائم مقذعة وخرجت الاخيرة باكية « وظلت واقفة امامي كشيطان رجيم في عينيها تحد ونداء اثار اشواقا بعيدة في قلبي . لم اكلمها ولم تكلمني ، ولكنها خلعت ثيابها ووقفت امامي عارية ... نيران الجحيم تاججت في صدري كان لابد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي. تقدمت نحوها مرتعش الاوصال ، فاشارت الى زهرية ثمينة من الموجودة على الرف . قالت: تعطيني هذه وتاخذني ... اشرت براسي موافقا. اخذت الزهرية وهشمتها على الارض واخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها الى فتات . اشارت الى مخطوط عربي نادر على المنضدة ، قالت : تعطيني هذا ايضا ... اشرت براسي موافقا اخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع من الورق ومضغتها ... اشارت الى مصلاة

حرير اصفهان اهدتني اياها مسز روبنسن ... قالت تعطيني هذه ايضا ثم تاخذني ... وهززت راسي موافقا فاخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة الى النار تلتهمها ... مشيت اليها ، ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذي . ولما افقت وجدتها قد اختفت ص١٥٩ » .

لقد فهم جورج طرابيشي هذا النص على انه ذو مستويين ؛ المستوى الاول واقعي والثاني رمزي ، وترجم الرموز الجغرافية والتاريخية في النص بما يدل على ان جين مورس هي رمز للحضارة الغربية « فالزهرية الثمينة والمخطوط العربي النادر ومصلاة الحرير الاصفهاني هي الثمن الذي تصر جين مورس على ان تتقاضاه وهي « القيم » التي تصر على ان تحطمها وتدوسها بقدميها قبل ان تهب مصطفى سعيد نفسها . ومن السهل على ضوء ما تقدم ، ان تقوم بترجمة فورية لهذه الرموز : ان الحضارة الغربية لا تسلم نفسها لطالبها الاتي من الشرق او من الجنوب الا اذا خلعته من تاريخه وقطعته من ماضيه وجردته من تراثه وفصمته عن شخصيته الحضارية ؛ بله الدينية » وبصدد قول مصطفى « كان يحلو لها ان

تغازل غرسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل ، وكان بعضهم يستجيب ويرد بعضهم بعبارات بذيئة فاتشاجر مع الناس واضربها وتضربني في عرض الطريق ... وكنت اعلم انها تخونني . وكان البيت كله يفوح برائحة الخيانة(٦٢) ، يضيف الباحث قائلا « وبديهي انه ينبغي ان نرى في (عهرها) هذا رمزا الى دعوتها العالمية ، فهي تستاثر بمصطفى سعيد لكنه لا يستطيع ان يستاثر بها. انه لها ، وهي للجميع(٦٣)

وقد سبق للناقد محي‌الدين صبحي ان قال بنفس الراي اذ اعتبر جين مورس « هي اوربا الشابة بكل عنفوانها وقوتها ، فهي تقرر شروط الحرب والسلام وظروف الاستسلام والخصام »(٦٤) .

على ان تفسير النص على هذه الصورة ، ينطوي في راينا على تجاهل لكثير من القرائن اللفظية والمعنوية في الرواية ، التي تمنع مثل هذا التصور واول هذه القرائن واقواها ان الطيب صالح قد

٦٢ـ جورج طرابيشي : نفسه ص ١٦٤ .
٦٣ـ نفسه ص ١٦٦ .
٦٤ـ محي الدين صبحي نفسه ص ٣٥ .

رسم في روايته اكثر من نمط واحد للمراة الاوربية ورغم ان ثمة ملامح عامة تشترك فيها اولئك النسوة والفتيات الاوربيات ، فان لكل منهن ملامحها الخاصة المتميزة ، فعلى الضد من جين مورس ، صور القاص نمطا اخر هو نتاج حضارة اوربا الصناعية ، انه العاملة في مطعم في سوهو شيلاغرينود ، التي تمتلك وعيا طبقيا واجتماعيا واضحا ، وتعبر عن هذا الوعي بلا التواء ولا اعوجاج « كانت تعمل خادمة في مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك . كانت ذكية ، تؤمن بان المستقبل للطبقة العاملة ، وانه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم اخوة . كانت تقول له : امي ستجن وابي سيقتلني اذا علما انني احب رجلا اسود ولكني لا ابالي ص١٤٠ » .

لقد كانت جريمة قتل جين مورس التي قام بها مصطفى سعيد قمة ماساته التي لاحقه تأنيب الضمير بعدها ، فلم يجد خلاصه الا بافناء ذاته ، على ان قتل مصطفى لزوجته لم يكن بدافع الكراهية او فقدان القدرة على الحب لديه وهو العامل الذي تسبب في انتحار الفتيات الثلاثة الاخريات ـ بل على العكس من ذلك ، كانت جين هي الوحيدة التي احبها مصطفى ، وكانت هي قد بادلته هذا

الحب ؛ لكن كليهما عجز عن حبه للاخر ، بسبب ذلك التشويه العقلـي الذي تميزت به المدنية الحديثة ، والذي اصاب كلا من سعيد وجين معا « لم تكن كراهية ، كان حبـا عجز ان يعبر عن نفسه . احببتهـا بطريقة معوجة ، وهي ايضـا ص١٥٢ » هـذ هالعبارة ترد على ورقة بين الاوراق التي تركها مصطفى سعيد بعد موته ، وحين يغرز مصطفى سعيد سكينه في صدر زوجته جين التي كانت تسعى الى تدمـير ذاتها وانتظرت ان يقوم مصطفى بذلك ، حتى كادت ان تيأس لطول مـا انتظرت ، جين هذه تقول لحظة يغرز مصـطفى سكينه في صدرها « احبك . فصدقتها . وقلت لها احبك . وكنت صادقا ص١٦٧ » .

وليس وســائل التعبير عن النفس وطرقه الملتوية فحسب هو ما يشترك فيه كل من مصطفى وجين ؛ بل ثمة صفات عديدة تجمعهما ، « لم تكن تعمل عملا ، ولا اعلم كيف كانت تعيش ، اهلها من ليدز ، لم أقابلهم حتى بعد زواجي بها . كانابوها تاجرا لا أدري في اية بضاعة ، وكان لها حسب قولها خمسة أخوة ، وكانت هي البنت الوحيدة . كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء . تعود الى البيت بقصص غريبة عن اشياء حدثت لها واناس قابلتهم لا يمكن ان يصدقها العقل . ولا استبعد

انها كانت عديمة الاهل ، كأنها شهرزاد متسولة ص١٥٧ » واذا ما تذكرنا حديث مصطفى سعيد عن ابي نؤاس ادركنا الشبه بين الشخصيتين المأساويتين ، وكأن القاص اراد ان تكون جين صورة لمصطفى فاستبعد ان تكون ذات اهل ، ليكون المنشأ الاجتماعي للشخصيتين واحدا ودوافع مأساتيهما واحدة ايضا .

وازاء عالم الحضارة الاوربية الصناعية ، وازاء عالم جين مورس يصور الكاتب ببراعة عالما مقابلا ومناقضا له ، هو عالم القرية في مجتمع زراعي بدائي كالمجتمع السوداني وازاء السبل الملتوية والمعقدة التي تعبر بها جين مورس ومصطفى سعيد عن نفسيهما نجد ان اناس القرية يعبرون عن انفسهم بصراحة متناهية ، ومثلما يصور القاص نموذجا متفردا من نتاج الحضارة الصناعية الاوربية ، يصور نموذجا متفردا مناقضا للنموذج الاوربي وهذا النموذج هو شخصية (بنت محجوب) التي تجالس الرجال وتشرب الخمر وتقسم « بالطلاق » كما يفعل الرجال ، وتتحدث عن الامور الجسدية والجنسية بصراحة لا مثيل لها .

ويختلف مدلول ومعنى الغريزة الجنسية في

القرية الزراعية ، عنه في المدينة الاوربية الحديثة لدى الناس صحيح انه في الاخيرة وسيلة للحياة وتوكيــد الذات الانســانية بوجه الموت والغربة الناجمين عن نظام اجتماعي قائم على الاستغلال الطبقي والانقسام والصراع والحرب ، لكن غريزة الحب هذه ترتبط بغريزة الموت ، فسعيد لا يحمل معه في حله وترحاله ايــروس وحده بل وكذلك تاناتوس(٦٥) فمصطفى يشتهي ان يمتلك جين ولكنه يشتهي أيضا ان يفنى فيها « كانت حياتي قــد اكتملت ليلتها ولكننـــي ترددت ص٧٢ » وجين امسكت الخنجر وقبلته بلهفة « وفجاة اغمضت عينيها وتمطت في الســرير رافعة وسطها قليلا وقالت : ارجوك يا حلــوي هيا انا مستعدة الان ص١١٦ » .

اما في القريــة الســودانية ، فان الجنس ، والحديث الدائم عنــه وسيلتان لتاكيــد الحياة واستمرارها ؛ ووســيلة من وسائل الكفاح ضد الموت فود الريس والحاج احمد وبنت مجذوب ، يتحدثون عن الجنس وهم على حافة القبر ، ولكنهم يتحدثون ببساطة وصراحة ودون التواء ولم تكن محاولة ود الريس للزواج من حسنة ، التي انتهت

٦٥- جورج طرابيشي : نفسه ص ١٧٠ .

الى مأساة مروعة الا محاولة منه لأن يرشي الموت « فيمهله عاما أو عامين ص٩٢ » كما يقول الراوي. فالكاتب يعبر ـ رغم تأثره بفرويد ـ عن فهم محور للغريزة الجنسية ، اذ انها هنا مكيفة تكيفا تاريخيا .

ويقترن بهذه البساطة التي نجدها في سكان القرية ، وعدم إسرافهم في الحياة ظاهرة ان يعمر بعض الناس طويلا ، والحاج احمد جد الراوي نموذج لهؤلاء المعمرين الذين قهروا الموت لعدم اسرافهم في الحياة « نحن بمقاييس العالم الصناعي الاوربي فلاحون فقراء ، ولكني حين أعانق جدي أحس بالغنى كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه انه ليس شجرة سنديان شامخة ... ولكنه كشجيرات السيال في صحارى السودان تقهر الموت لانها لا تسرف في الحياة ص٧٧ » وفي مكان اخر يقول الراوي « انا موقن ان الموت حين يبرز له سيبتسم هو في وجه الموت . الا يكفي هذا ؟ هل ابن ادم مطالب باكثر من هذا ؟ ص١١١ » .

لقد آن لنا ان نتساءل عن موقف الكاتب من لقاء الشرق بالحضارة الاوربية وعن تعبيره عن هذا اللقاء فما هو جوهر هذا الموقف ؟ .

لقد اشرنا منذ البداية الى ان الرواية تصور جيلين متعاقبين ، يملك كل منهما موقفا من الحضارة الاوربية ، يختلف عن الثاني اما الجيل الاول الذي نشا في ظل الاحتلال الانجليزي ، فيمثله مصطفى سعيد واما الجيل الثاني فيمثله الراوي وهو البطل الشرعي(*) في الرواية ووجود بطل شرعي في الرواية الى جانب البطل المركزي ، هو من أهم ما تتميز به رواية موسم الهجرة الى الشمال ، عن الروايات العربية التي سبقتها الى مناقشة موضوع اللقاء بين الشرق والحضارة الاوربية .

ان جوهر نظرة مصطفى سعيد الى الحضارة الاوربية لا تختلف عن نظرة اسلافه في الرواية العربية ، وهو لا يختلف عنهم الا في كون انتقامه من هذه الحضارة اكبر حجما من انتقام اسلافه ، ومن حيث وسائله في الانتقام ، تلك الوسائل التي تنسجم مع حجم التأثير المرضي والمصاب الذي تركته فيه هذه الحضارة . فهو يتصور العنف مرتبطا بحدود جغرافية هي حدود اوربا ، وبأن جرثومة العنف هذه قد اصابت أوربا منذ الف

* البطل الشرعي : هو الشخصية الثانية في الرواية بعد البطل الرئيسي ، وتقوم هذه الشخصية عادة بعملية مثاقفة مع الشخصية المحورية تتعلم منها الاخيرة فتعدل من سلوكها .

عام ؛ مصطفى سعيد هذا اذ يؤكد التسمات الاوربية للمثف يغيب قسماته الكولنيالية واذ يربطه بعراقة تاريخية عمرها الف عام يموه اصله الراسمالي ـ الامبريالي الحديث(٦٦) » .

على ان موسم الهجرة الى الشمال ، ليست رواية تحكي قصة اللقاء بين الشرق والغرب فحسب بل هي بالاساس قصة التغيير الاجتماعي في العالم العربي ، التغيير الذي لابد وان يفضي الى اللقاء الحتمي بحضارة التكنولوجيا ، وهي قصة اغتراب انسان هذا العالم وهو يقذف فجاة في احضان الجديد الذي من شانه ان يمزق نسيج العلاقات الاجتماعية القديمة ، خالقا بذلك العديد من التمزقات والصراعات والغربة الروحية . فلم يكن مصطفى سعيد هو الضحية الاولى والاخيرة للقاء الشرق بالغرب ، ولم يكن جيله هو الجيل الوحيد الذي دفع من روحه ثمنا لهذا اللقاء فحسب ؛ بل ثمة اكثر من جيل سيتعرض خلال عملية الهجرة الى المجتمع الجديد ، الى عملية الاغتراب الروحي، ولقد استيقظت القرية الصغيرة على النيل ذات صباح ، وفتحت عيونها على جريمة مروعة قدمت فيها القرية ثمنا لمثل هذا التغير ، فلم تكن قصة

٦٦ـ نفسه ص ١٦٩ .

حسنة بنت محمود ـ التي تزوجت من مصطفى سعيد وتاثرت به وبثقافته ، ونالها التغير بعد زواجها من مصطفى بحيث يقول محجوب عنها : « ولكن الحقيقة ان بنت محمود تغيرت بعد زواجها من مصطفى سعيد . كل النسوان يتغيرن بعد الزواج لكنها هي خصوصا تغيرت تغيرا لا يوصف. كأنها شخص اخر ص١٠٤ » ـ لم تكن سوى قصة هذا التغيير الاجتماعي ، وقصة الصراع بينالاجيال وبين القديم والجديد .

لقد رفضت حسنة التي نالها التغير انتتزوج رجلا كهلا هو ود الريس الذي لا يرى في المرأة سوى كائنا من الدرجة الدنيا « ود الريس كهؤلاء المغرمين باقتناء الحمير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة الا اذا راى رجلا اخر راكبا عليها . يراها حينئذ جميلة ويسعى جاهدا لشرائها حتى ولو دفع اكثر مما تستحق ص١٠٤ » ولكنها ارغمت على الزواج منه ، فحدثت الجريمة : قطعت حسنة عضوه الجنسي وقطع هو باسنانه حلمة ثديها ، وماتا معا . ولعل القاص اراد ان يرمز بقطع الاعضاء التناسلية الى القطيعة بين الجيلين .

ان جيل حسنة هو جيل الراوي ، الجيل الذي ينظر الى التغيير والتقدم الاجتماعي نظرة

خالية من العقد المرضـــية ، فهو حين يسال عن الاوربيين يقول : « اذا استثنينا فوارق ضـئيلة مثلنا تماما ، يتزوجون ويربون اولادهم حـــسب التقاليد والاصول . ولهم اخلاق حـسنة وهم عموما قوم طيبون ص٧ » والراوي يقطـــع حديثه عن الاوربيين ولا يقول كل ما خطر بباله عن الاوربيين خشية الا يفهم محجوب « لم اقل لمحجوب هـذا وليتني قلت ، فقد كان ذكيا ، خفت من غـروري الا يفهم ص٧ » ومحجوب الفلاح هذا ، هو نفسه الذي يقول للراوي : « الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه تغيرت اشياء . طلمبات الماء بدل السـواقي . محاريث من حديد بدل محاريث الخشب .اصبحنا نرسل بناتنا للمدارس ... وضحك محجوب وهو يقول : « الدنيا تتغير حقيقة حين يصير امثالي وزراء في الحكومة ص١٥٣ » ومحجوب انما يجسد بقوله هذا روح التغيير لدى الاجيال الجديدة .

ان موقف الراوي ــ البطل الشرعي في الرواية ــ هو موقف مضـــــاد لموقف مصطفى سعيد من الحضارة الاوربية « مصطفى سعيد قال لهم انني جئتكم غازيا . عبارة ميلودرامية ولا شك . لكن مجيئهم هم ايضا لم يكن مأساة كما نصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون هم كان عملا ميلودراميـا سـيتحول مع مــــرور الزمن الى خرافــة عظمى

ص٦٢ » . انه موقف عقلاني ومستقبلي والى جانب التغير الاجتماعي « هـــذه ارض الشعر والمكن وابنتي اسمها آمال . سنهدم وسـنبني وسنخضع الشمس ذاتها لارادتنا وسنهزم الفقر باية وسيلة ص١١٥ » .

ويختتم الكاتب روايته بمشهد يكرس هـذا الموقف من التغير الاجتماعي ، وعن رحلة الشرق باتجاه الغرب ، اذ يعمد الراوي الى السباحة في النهر . وكما في معظم مشاهد الرواية يعمد الكاتب ببراعة قلما نجد لها نظيرا الى المعانقة بين الرمـز والواقع « وفي حالة بين الحياة والموت رايت اسرابا من القطا متجهة شمالا . هل نحن في موسم الشتاء او الصيف ؟ هل هي رحلة ام هجرة ... في لحظة لا ادري طالت ام قصرت تحول دوي النهـر الى ضوضاء مجلجلة وفي اللحظة عينها لمع ضـوء حاد كأنه لمع برق ... وقد كانت تلك لحظة اليقظـة من الكابوس . وتحددت علاقتي بالنهر ، انـي طاف فوق الماء ولكنني لست جزءا منه ... طول حياتي لم اختر ولم اقرر ، انني اقرر الان ان اختار الحياة ... لا يعنيني ان كان للحياة معنى او لم يكن لها معنى ... ساحيا بالقوة والمكر ص١٧٠ »

لقد انتهت الرواية العربية في طرحها لموضوع

اللقاء بين الشرق والحضارة الاوربية ، الى فكرة مفادها ان الشرق شرق والغرب غرب ، وسقطت جميعها في فخ نظرية العود الابدي ، اذ انتهى كاتبوها جميعا الى فكرة خاطئة مفادها بان الامة العربية ستنهض لتبني حضارة جديدة ومعاصرة ، ولكن هذه الحضارة لن يقدر لها أن تقوم ما لم تأفل حضارة اوربا ! .

واذا كان مصطفى سعيد ـ بسبب كونه قد عاش في مرحلة تاريخية مبكرة من لقاء امتنا العربية بالحضارة الاوربية ، هذا اللقاء الذي كان على صورة غزو استعماري لارضنا العربية ـ قد سقط في شراك هذا الفهم ، فان الراوي وهو النموذج الروائي الذي يمثل الجيل التالي لمصطفى سعيد ـ قد انتهى كما رأينا الى نتيجة مغايرة تماما ، وعلى هذا فان رواية موسم الهجرة الى الشمال هي اول رواية عربية حديثة ، تطرح موضوع لقاء الامة بالحضارة الاوربية طرحا تقدميا . ولعل العبارة التي قدم بها مصطفى سعيد قصة حياته ، التي لم تكتب ، تلخص المحتوى الفكري للرواية خير تلخيص ، فقد جاء فيها : « الى الذين يرون بعين واحدة ، ويتكلمون بلسان واحد ويرون الاشياء اما سوداء أو بيضاء اما شرقية او غربية ص١٥٢»

الى الذين ينظرون الى الامور نظرة لا ترى منها الا جانبا واحدا ، على حين تغفل الجوانب الاخرى ، وهي النظرة التي اسميناها بالنظرة الرومانسية غير الجدلية والتي كانت الرواية العربية قبل صدور موسم الهجرة الى الشمال ، اسيرة لها .

السابقون واللاحقون

تروي قصة (السابقون واللاحقون) لسميرة المانع التي صدرت عام ١٩٧٢ حكاية امراة عراقية تترك عملها كمدرسة في احدى مدارس بغداد ، لتلحق بصديقها الذي حصل على اجازة دراسية للحصول على شهادة الدكتوراه من احدى جامعات انكلترا . وهناك تحصل على عمل في احدى السفارات العربية ، يمكنها من مواصلة العيش بالقرب من صديقها . وتقتطع الكاتبة شريحة زمنية تعرض لنا الاحداث التي تقع فيها لبطلة الرواية في القسم الصحفي من السفارة ، وخارج السفارة في لندن حيث تعيش البطلة .

وتجسد الكاتبة احساس المراة الشرقية حين تصطدم بالقيم الروحية والاجتماعية للمجتمع الاوربي الحديث ، وهي تحمل ارثا ثقيلا من قيم الشرق الاقطاعية والعشائرية الموروثة ، كما تجسد الكاتبة ومن خلال انماط سلوكية عديدة الفرق الكبير بين نظرة المجتمع الاوربي الحديث ، ونظرة الشرقي

الزراعي الى امور عديدة ، كالحب والجنس والزواج والزمن والانتماء الى الارض ، وهي من ثم تحاول رصد الكثير من مظاهر الازمة التي يحياها الانسان في ظل الحضارة الاوربية الراسمالية المعاصرة .

وتعيش (منى) فريسة للصراع الناشيء في نفسها ، نتيجة موقفها الحائر بين نظرتين الى الحب والزواج ، نظرة صديقها (سليم) الذي يمتلك فيهما واقعيا للحب والزواج ، يفصح عنه في قوله : « يحتاج المتزوج الى كثير من الرومانتيكية لكي يستمر الحب » وقوله وقد لمس ذراع منى : « هذه اللمسة لن تشعري بها بعد الزواج . ستكون مثل جس الطبيب وكاني انظر في موضع جرح سببته لك سكين المطبخ ص١١٢ » بين هذا الموقف وموقف الملحق التجاري (مناف) ونظرته الشرقية المتخلفة الى المراة ، التي لا ترى فيها سوى اداة للانتاج تستهلك فترمى او تستبدل .

على ان الكاتبة لا تدين نظرة الرجل الشرقي الذي يرى في المراة كائنا انسانيا من الدرجة الثانية بل تدين وبلمسات ذكية نظرة المجتمع الراسمالي الحديث ، الذي استبدل نظام البغاء بنظام تعدد الزوجات المعروف في المجتمعات الاسلامية الشرقية كما تدين مفهوم الفتاة الاوربية للصداقة ، المفهوم القائم على اساس المنفعة المادية . تتساءل مارجريت

بدهشة وهي تصـــــرخ برغبتها في زيــارة الشرق الاوسط : « كيف يتزوج الرجل امراتين واكثر ، انت تعاشرين رجلين ، انا اصادقهما . لا اتزوج ص١٠١ » ومنى بطلة الرواية ترى في نظام الصداقة الاوربي هذا ، بديـــلا عن تعدد الزوجات عنـــد الشرقيين ليس الا . ونحن من خلال الحوار الدائر بين منى وزميلتها الانجليزية ، نضع ايدينا علـى النظرة النفعية الى الحب ، تلك النظرة التـي هي من نتاج مجتمع راسـمالي شعاره الاساس : الربح تتسـاءل منى من صديقتها الانكليزية قائلة :

ــ هل تحبينــه ؟

ــ نوعا مــا .

ــ وبــوب ؟

ــ اواه هو شيء آخــر .

ــ اتحبين الاثنين ؟

ــ يا للسؤال . لدي صديق لم احدثك عنه من قبل ص١٣ »

والفتاة الانجليزية هذه تقول عن صديقهــا (تــوم) :

« ــ انه رخيص ولذا ساذهب معه .

ــ رخيص وسياخذك للمطعم الفخم ؟

ــ اوه لماذا لا تفهمين . اقصد ان الخروج معه لا يكلفني شيئا ، فهو الذي سيدفع قائمة الحساب ص١٩ » .

وهذه النظرة الى الحب التي خلقها مجتمع شعاره « الانتاج من اجل الربح » تجسدها (جل) بسلوكها ، اذ تعمد الى اغواء الرجال ثم تهرب منهم بعد ان تكون قد حصلت على وجبة شهية من أحد المطاعم الراقية . وبهذه الطريقة ترد على المجتمع الذي حولها الى سلعة .

وفي المقابل تناقش القاصة نظرة الرجل الشرقي التحريمية الى الحب وسلوكه المزدوج بالنسبة للمراة . اذ الرجال لا يغفرون لزوجاتهم او بناتهم او اخواتهم (التمشي) في شارع ابي نؤاس احرارا وان رغبوا في رؤية الحبيبة ص٦٩ » .

وفضلا عن الحب الذي يستحيل الى سلعة قابلة للبيع والشراء في اسواق النظام الراسمالي ، تحاول الكاتبة رصد الكثير من جوانب الازمة الخانقة التي يحياها انسان حضارة التكنولوجيا ، فنحن من خلال ابسط المظاهر السلوكية لشخصيات

القصة ، نقف على ظاهرة اخرى من ظواهر هـذه الازمة ، وهي ظاهرة البرود والتفتت في العواطف الانسـانية ، تقول مارجريت لمنى « انت تظلمينني كثيرا حين تعتقدين اني باردة . انت قاسية حقا . ليتك تعرفت يوما على صديقتي جـل ، لرايت البرودة الحقيقية ، الثلج ص١٩» وتروي مارجريت عن جل هذه فتقول : كنا نذهب الى البار ، فيقع نظرها على احدهم حالما تلمـح جيبه اقتدارا او تتوسم فيه سيارة لتوصيلها للبيت ، وسرعان ما يمزحان معا ، تصوري في احدى المرات ذهبت هي وشقيقتها مـــع شخصين تعرفتا عليهما حديثـا اخذاهما الى الهليتون ، طبعا روعة . وبعــــد ان انتهيتا من العشاء الذي كان شيئا خياليا ، احتالتا كي تذهبا الى التواليت ومن هناك تسربتا الى الخارج تاركتين الشخصين ينتظرانهما على المائدة ص٢٠ » .

وحينما تخاطب مارجريت صديقها ريتشارد عبر اسلاك الهاتف تخاطبه بشكل بارد تعلق عليه الكاتبة قائلة « وهكذا انتهيــــا ... كلمات كالماء والقطن الذي يصفه الاطباء في القرى العراقيـــة موهمين المرضى انه الدواء الشافي ص٤٤ » .

وفي مكان اخر نضع ايدينا على جانب اخــر

من جوانب الازمة الروحية في المدينة الحديثة الا وهو فقدان القدرة على التواصل بين البشر وما ينجم عنه من شعور عميق بالاغتراب . فالحوار بين منى وصاحبة الدار التي تسكن فيها يقتصر على بضع كلمات من قبل المجاملة ليس الا :

« اليس نهارا مدهشا ؟

ـ جدا .

وكان هذا الحوار غاية ما هناك ، فقد صعدت مسز روجرز الدرج ومعها كلبها وجريدة المساء كعادتها كل يوم ص٣٥ » .

وفي الحكاية التي يرويها سائق التاكسي للفتاة الشرقية نضع ايدينا على جوهر العوامل الصانعة لاغتراب الانسان : « اترين تلك البناية ... بالامس كانت لنا انا وزوجتي وكانت بيتا صغيرا بخمس غرف للايجار قبل ان تشتريه بلدية لندن ويصبح عمارة كالتي ترينها ... هذا قبل عشرين سنة اما اليوم لا ترين الا عمارات وسيارات قد لا تعرفين اسماء اصحاب المكان الذي تسكنين فيه وتسافرين فلا تشاهدين لهم وجها ص١٤٤ » وحكاية السائق الذي جرده المجتمع الراسمالي من سكنه ، فادى بذلك الى حرمانه من الاستقرار

الروحي ، والى اغترابه ، يعيد الى الاذهان حكاية سائق العربة في قصة تشيخوف (كآبـة) الذي يروي حكاية موت ولده الوحيد فيرفض الجميع الاستماع الى حكايته ، واخـيرا ينفرد بحصانه ليروي له حكايته المؤلمة . وكان الحصان هو الكائن الوحيد الذي ذرفت عيناه دموعا لمأساة (ايونا) لكن ايونا الانجليزي بلا حصان ، ولن يجد في سيارته سوى « وجع الرأس » .

وتجري احداث (السابقون واللاحقون) في اطار من الزمن الميكانيكي ـ مجسدا في الساعة المعلقة في جدار السـفارة ؛ هـذه الساعة التي استحالت منذ روسو والرومانتيكية الى رمز كريه للآلة ؛ وينتظم هـذا الاحساس الحاد بالزمن والموت احداث الرواية كلها ؛ بل ان الكاتبة تعمد الى ادخال فواتير وقوائم حسابات تجهيز الموتى من رعايا الدولة العربية التي تعمل في سفارتها ؛ الذين يأتون احياء الى لندن طلبا للشفاء ويغادرونها موتى ؛ ولم يسلم من رائحة الموت هذه حتى اسم الروايـة .

واذا ما انتقلنا الى رؤية المؤلفة وموقفها من الحضارة الاوربية الحديثة ، ومن اللقاء بين الشرق وهذه الحضارة ؛ وجـدنا موقفين متناقضين ،

اولهما موقف منى الذي يرى ان (الشرق ما زال شرقا) والغرب غربا وهو موقف يتجاهل الكثير من التغييرات الاساسية والكبرى التي طرات في عصرنا ، وموقف (سليم) الذي يرى في كلام منى كلاما فارغا اذ « لم يعد هناك شرق او غرب ... في زمن الطائرة والتلفزيون ص٧٠ »

ان رواية (السابقون واللاحقون) تسقط اسيرة لنفس الرؤية الرومانسية التي سقطت فيها الرواية العربية قبل موسم الهجرة الى الشمال ، مع بعض الفروق ذلك ان رومانسية المانع رومانسية سوداء تفوح منها روائح الموت الكريهة .

لقد اقتصرت الكاتبة في تناولها للانسان الاوربي ، على نمط معين من الفتيات ، كما فعل ـ الحكيم في عصفور من الشرق ـ واهملت الانماط الاخرى التي انتجتها هذه الحضارة ومن هنا فان نظرتها الى الحضارة الاوربية لم تكن لتختلف في جوهرها عن نظرة الحكيم الموغلة في السلفية .

واذا ما انتقلنا من هذا الجانب الى الجانب الفني في الرواية ، نجد ان القاصة امعنت في استخدام السرد ، وكانت اسيرة رغبة في ابراز شخصيتها من خلال احداث الرواية ، اذ اننا نجد ظل الكاتبة يساير الاحداث جنبا الى جنب ، اذ

تعمد الى تفسير الاحداث والتعليق عليها بصــورة تعليمية . هذا فضلا عن اللغة الركيكة التي كتبت بها الروايــة .

قائمة باسماء المصادر والمراجع

١ ـ المصــــادر

١ ـ توفيق الحكيم : عصفور من الشرق/مكتبة الاداب / القاهرة

٢ ـ رفاعة الطهطاوي : تخليص الابريز في تلخيص باريس
تحقيق ودراسة د. محمود فهمي حجازي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٤

٣ ـ سميرة المانع : السابقون واللاحقون / دار العودة/بيروت ١٩٧٢

٤ ـ سهيل ادريس : الحي اللاتيني / دار الاداب / بيروت / ١٩٧٣

٥ ـ الطيب صالح : موسم الهجرة الى الشمال /دار العودة/ بيروت /١٩٦٩

٦ ـ يحيى حقي : قنديل ام هاشم / سلسلة اقرا / القاهرة ١٩٤٣

المحتـــويات

صدر من الموسوعة الصغيرة

١٦ـ فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعدالدين
١٧ـ الاعلام والاعلام المضاد صاحب حسين
١٨ـ استثمار المواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة د . طارق شكر محمود
١٩ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية د. هاشم الطعان
٢٠ـ الانسان اخر المعلومات العلمية عنه ترجمة : كاميران قرەداغـي
٢١ـ الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حافظ
٢٢ـ من عصر البخار الى عصر الليزر د. اسامة نعمان
٢٣ـ الاتصال والتغير الثقافي هادي نعمان الهيتي
٢٤ ـ المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب د. جعفر آل ياسـين
٢٥ـ الصهيونية ليست حركة قومية بديعة امين
٢٦ـ الدفاع المدني الشعبي . صالح مهدي عماش
٢٧ـ النسبية بين نيوتن وانشتاين . طالب ناهي الخفاجي
٢٨ـ فن التمثيل عند العرب د . محمد حسين الاعرجي
٢٩ـ الموسيقى الالكترونية د . علي الشوك
٣٠ـ دراسة في التخطيط الاقتصادي . د . يحيى غني النجار
٣١ـ الرواية العربية والحضارة الاوربية . شجاع مسلم العاني

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

« ١٦٤٣ لسنة ١٩٧٨ »